هي مكية في قول الجمهور. وقال مقاتل: منها مدنيّ؛ الآية التي يذكر فيها الشعراء، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وقال ابن عباس وقتادة مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخرها. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. وفي رواية: ست وعشرون. وعن ابن عباس [قال]: قال النبي ﷺ: «أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأوّل وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصَّل نافلة» (١). وعن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المبين مكان الإنجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصَّل ما قرأهن نبيّ قبلي» (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿طسم﴾ قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائي وخلف بإمالة الطاء(٣) مشبعاً في هذه السورة وفي أختيها. وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري بين اللفظين؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ الباقون بالفتح مشبعاً. قال الثعلبي: وهي كلها لغات فصيحة. وقد مضى في «طه» قول النحاس في هذا. قال النحاس: وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي: ﴿طسم﴾ بإدغام النون في الميم، والفراء يقول بإخفاء النون. وقرأ الأعمش وحمزة: «طسين ميم» بإظهار النون (٤). قال النحاس: للنون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه: يبيّنان عند حروف

(١) ضعيف: ضعفه السيوطي (١١٦٧) في الجامع الصغير، وكذا ضعفه الألباني (٩٥٠) في ضعيف الجامع.
(٢) ضعيف: ضعفه السيوطي (١٦٨٨) في الصغير، وكذا ضعفه الألباني (١٥٥٦) في ضعيف الجامع من رواية محمد بن نصر، عن أنس ـ رضي الله عنه.
(٣) انظر: تقريب النشر (ص١٥٢).
(٤) قراءة متواترة: الإقناع (٢/ ٧١٦).

الحلق، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء، ويقلبان ميماً عند الباء ويكونان من الخياشيم؛ أي لا يبينان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف الحلق فتبيّن النون عنده، ولكن في ذلك وُجَيْه: وهو أن حروف المعجم حكمها أن يوقف عليها، فإذا وقف عليها تبينت النون. قال الثعلبي: الإدغام اختيار أبي عبيد وأبي حاتم قياساً على كل القرآن، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف الفم. قال النحاس: وحكى أبو إسحاق في كتابه «فيما يجري وفيما لا يجري» أنه يجوز أن يقال: «طسينَ ميمُ» بفتح النون وضم الميم، كما يقال هذا معدي كربُ. وقال أبو حاتم: قرأ خالد. «طسينَ ميمُ». ابن عباس: ﴿طسم﴾ قَسَم وهو اسم من أسماء الله تعالى[١]، والمقسم عليه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ وقال قتادة: اسم من أسماء القرآن أقسم الله به[٢]. مجاهد: هو اسم السورة ويحسن افتتاح السورة [٣]. الربيع: حساب مدّة قوم[٤]. وقيل: قارعة تحل بقوم. ﴿طسم﴾ و﴿طسۤ﴾ [٥] واحد. قال:

وَفَاؤُكُمَا كالرَّبعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ بأن تُسْعِدَا والدَّمعُ أَشْفَاه ساجمهْ

وقال القرظي: أقسم الله بطَوْله وسَنائه ومُلكه[٦]. وقال عبد الله بن محمد بن عَقيل: الطاء طور سيناء والسين إسكندرية والميم مكة. وقال جعفر بن محمد بن عليّ: الطاء شجرة طُوبى، والسين سِدرة المنتهى، والميم محمد ﷺ. وقيل: الطاء من الطاهر والسين من القدوس وقيل من السميع وقيل من السلام والميم من المجيد. وقيل: من الرحيم. وقيل: من الملك[٧]. وقد مضى هذا المعنى في أول سورة «البقرة». والطَّواسيمُ والطَّواسينُ سور في القرآن جُمعت على غير قياس[٦]. وأنشد أبو عبيدة:

وبالطَّواسيم التي قد ثُلِّثت وبالحواميم التي قد سُبِّعت

قال الجوهري: والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد، فيقال: ذواتُ طسم وذواتُ حم.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ رفع على إضمار مبتدأ أي هذه ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ التي كنتم وعدتم بها؛ لأنهم قد وعدوا في التوراة والإنجيل بإنزال القرآن. وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى هذه. ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي قاتل نفسك ومهلكها. وقد مضى في «الكهف»[٩] بيانه. ﴿أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لتركهم الإيمان. قال الفراء: «أن» في موضع نصب؛ لأنها جزاء. قال النحاس: وإنما يقال: بإن مكسورة لأنها جزاء؛ كذا المتعارف. والقول في هذا ما قاله أبو إسحاق في كتابه في القرآن؛ قال: «أنْ» في موضع نصب مفعول من أجله؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان. ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ أي معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية، ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية. وقال أبو حمزة الثُّماليّ في هذه الآية: صوت يسمع من السماء في النصف من شهر

(١ ـ ٥) هذا الكلام سبق تفنيده ولا يصح إلا أنه تحد للعرب أهل الفصاحة والبلاغة، والسند إلى ابن عباس منقطع؛ لأنه من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وانظر تفسير الطبري (١٩/ ٥٩).

(٦ ـ ٨) ضعاف، وانظر السابق، وضعفها ابن الجوزي (٤/ ٤٨٧) في زاد المسير.

(٩) عند الآية (٦).

رمضـان؛ تخرج به العـواتق من البيـوت وتضج له الأرض[١] . وهذا فيـه بعدٌ؛ لأن المراد قـريش لا غيرهم. ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ أي فتظل أعناقهم ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ قال مـجاهد: أعناقهم كبـراؤهم؛ وقال النحاس: ومـعروف في اللغـة؛ يقال: جـاءني عُنُق من الناس أي رؤساء منهم. أبـو زيد والأخفش: ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾ جماعاتـهم؛ يقال: جاءني عُنُق من الناس أي جماعة. وقـيل: إنما أراد أصحاب الأعناق، فحذف المـضاف وأقام المضاف إليـه مقامه. قـتادة: المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فـلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية[٢] . ابن عباس: نزلت فينا وفي بني أميـة ستكون لنا عليهم الدولة فتذلّ لنا أعناقهم بعد معاوية[٣] ؛ ذكره الثعلبي والغـزنوي . وخاضعين وخاضعة هنا سواء؛ قـاله عيسى بن عمر واختاره المبـرد. والمعنى: إنهم إذا ذلّت رقابهم ذلّوا؛ فالإخبار عن الرقاب إخبـار عن أصحابها. ويسوغ في كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثاني؛ قال الراجز:

طولُ الليالي أسرعتْ في نَقْضي طَوَينَ طُولِي وطَوَيْنَ عَرْضِي

فأخبر عن الليالي وترك الطول. وقال جرير:

أرَى مَرَّ السنين أخَذْنَ منّي كما أخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ

وإنما أجاز ذلك لأنه لو أسقط مرّ وطول من الكلام لم يفسد معناه، فكذلك رد الفعل إلى الكناية في قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام، ولأدّى ما بقي من الكلام عنه حتى يقول: فظلوا لـها خاضـعين. وعلى هذا اعتمـد الفراء وأبو عـبيدة. والكسـائي يذهب إلى أن المعنى خاضعيها هم، وهذا خطأ عند البـصريين والفراء. ومثل هذا الحذف لا يقع في شيء من الكلام؛ قاله النحاس.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ تقدّم في «الأنبياء». ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي أعرضـوا ومن أعرض عن شيء ولم يقـبله فهـو تكذيب له. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وعيد لهم؛ أي فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذي استهزءوا به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نبّه على عظمته وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببـصـائرهم لعلموا أنـه الذي يستـحق أن يُعبـد؛ إذ هو القـادر على كل شيء. والزوج هو اللون؛ قـاله الفراء. و﴿كَرِيمٍ﴾ حسن شـريف، وأصل الكرم في اللغة الشـرف والفضل، فنخلة كريمة أي فاضلة كثيرة الثمر، ورجل كريم شريف فاضل صفوح. ونبتت الأرض وأنبتت بمعنى. وقد تقدّم في سـورة «البقرة»[٤] والله سبـحانه هو المخرج والمنبت له. وروي عن الشعـبي أنه قال: الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لئيم[٥] . ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي فيما ذكر من الإنبـات في الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يعجزه شيء. ﴿وَمَا كَانَ

(١) باطل : ولا يصح ، وانظر تعليق المصنف عليه.

(٢) صحيح إلى قتادة : الطبري (١٩/ ٦٠) في تفسيره.

(٣) باطل: والثعلبي ينفرد عادة بالمناكير ، ولم أهتد إليه مسندًا.

(٤) عند الآية (٢٢).

(٥) ضعيف: فيه جـهالة المحدث عن الشعبي ،كما في تفسير ابن أبي حـاتم (١٠/ ٣٩٦) ، وقد عزاه السيوطي (٥/ ١٥٣) في الدر المنثور إلى عبد بن حميد ، والفريابي وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين لما سبق من علمي فيهم. و﴿كَانَ﴾ هنا صلة في قول سيبويه؛ تقديره: وما أكثرهم مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ ﴿إِذْ﴾ في موضع نصب؛ المعنى: واتل عليهم ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ ويدلّ على هذا أنّ بعده. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ذكره النحاس. وقيل: المعنى؛ واذكر إذ نادى كما صرح به في قوله: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [ص: ٤٥] وقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]. وقيل: المعنى؛ ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ كان كذا وكذا. والنداء الدعاء بيا فلان، أي قال ربك يا موسى ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ثم أخبر من هم فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فـ﴿قَوْمَ﴾ بدل؛ ومعنى ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ألا يخافون عقاب الله؟ وقيل هذا من الإيماء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين، ودلّ قوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾ على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى. وقيل: المعنى؛ قل لهم ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب، ولو جاء بالتاء لجاز. ومثله ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] بالتاء والياء. وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم «أَلاَ تَتَّقُونَ» بتاءين أي قل لهم «ألاَ تَتَّقُونَ». ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي قال موسى ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي في الرسالة والنبوة. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ لتكذيبهم إياي. وقراءة العامة ﴿وَيَضِيقُ﴾ ﴿وَلَا يَنطَلِقُ﴾ بالرفع على الاستئناف. وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة «وَيَضِيقَ وَلاَ يَنْطَلِقَ» (١) بالنصب فيهما رداً على قوله: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ قال الكسائي: القراءة بالرفع؛ يعني في ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ يعني نسقاً على ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾. قال الفراء: ويقرأ بالنصب. حكي ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى بن عمر وكلاهما له وجه. قال النحاس: الوجه الرفع؛ لأن النصب عطف على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾ وهذا بعيد يدلّ على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨] فهذا يدلّ على أن هذه كذا. ومعنى ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ في المحاجة على ما أحب؛ وكان في لسانه عُقْدة على ما تقدّم في «طه». ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحي، واجعله رسولاً معي ليؤازرني ويظاهرني ويعاونني. ولم يذكر هنا ليعينني؛ لأن المعنى كان معلوماً، وقد صرح به في سورة «طه»: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾ وفي القصص: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤] وكأن موسى أذن له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه. ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر، ويخاف من نفسه تقصيراً، أن يأخذ من يستعين به عليه، ولا يلحقه في ذلك لوم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ الذنب هنا قتل القبطي واسمه فاثور على ما يأتي

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٢).

في «القصص»(١) بيانه، وقد مضى في «طه» ذكره. وخاف موسى أن يقتلوه به، ودلّ على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي كلا لن يقتلوك. فهو ردع وزجر عن هذا الظن، وأمر بالثقة بالله تعالى؛ أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم؛ فإنهم لا يقدرون على قتلك، ولا يقوون عليه.

﴿فَاذْهَبَا﴾ أي أنت وأخوك فقد جعلته رسولاً معك. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي ببراهيننا وبالمعجزات. وقيل: أي مع آياتنا. ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يريد نفسه سبحانه وتعالى. ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ أي سامعون ما يقولون وما يجاوبون. وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما وأنه يعينهما ويحفظهما. والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يوصف الباري سبحانه بذلك. وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير. وقال في «طه»: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] وقال: ﴿مَعَكُم﴾ فأجراهما مجرى الجمع؛ لأن الاثنين جماعة. ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلا إليه. ويجوز أن يكون لجميع بني إسرائيل.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا: إنا ذوو رسالة رب العالمين. قال الهذليّ:

أَلِكْنِي إليها وخيرُ الرَّسُو ... لِ أَعْلَمُهُمْ بنَوَاحِي الخَبَر

ألكني إليها معناه أرسلني. وقال آخر:

لقد كَذَبَ الواشون ما بُحْتُ عندهمْ ... بِسِرٍّ ولا أرسلتُهمْ برسولِ

آخر:

ألاَ أَبْلغْ بني عمرو رسولاً ... بأنّي عن فُتَاحَتِكُمْ غنيُّ

وقال العباس بنُ مرداس:

ألاَ مَن مُبلِغٌ عني خُفَافًا ... رسولاً بيتُ أهلك مُنْتَهَاها

يعني رسالة فلذلك أنّثها. قال أبو عبيد: ويجوز أن يكون الرسول في معنى الاثنين والجمع؛ فتقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ [الشعراء: ٧٧]. وقيل: معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم؛ وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً (٢). فانطلقا إلى فرعون

---

(١) عند الآيات (١٥ ـ ١٩).

(٢) هذا العدد مشكوك في صحته، لكونه منقولاً عن بني إسرائيل أنفسهم، ومعلوم أن التوراة تعرضت =

فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البـوّاب على فرعون فقال: هاهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين. فقال فـرعون: ايذن له لعلنا نضـحك منه؛ فدخـلا عليه وأديا الرسـالة. وروى وهب وغيره: أنـهما لما دخلا على فـرعون وجداه وقد أخرج سـباعاً من أسد ونمور وفـهودٍ يتفرج علـيها، فخـاف سواسها أن تبطش بموسى وهارون، فـأسرعوا إليـها، وأسرعت السبـاع إلى موسى وهارون، فأقبلت تلحس أقدامهمـا، وتبصبص إليهما بأذنابها، وتلصق خدودها بفخذيهـما، فعجب فرعون من ذلك فقال: ما أنتما؟ قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فعرف موسى لأنه نشأ في بيته؛ فـ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ على جهة المنّ عليه والاحتقار. أي ربيناك صغيراً ولم نقتلك من جملة من قتلنا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فمـعنى كان هذا الذي تدعيـه. ثم قرره بقتل القـبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ والفَعْلة بفتح الـفاء المرة من الفعل [١]. وقرأ الشعـبي: «فِعلتك» بكسر الفاء والفـتح أولى؛ لأنها المرة الواحدة، والكسر بمعنى الهيئة والحال، أي فعلتك التي تعرف فكيف تدعي مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك. وقال الشاعر:

كأنّ مشيتَها من بيت جارتها ... مرُّ السحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

ويقال: كـان ذلك أيام الرِّدة. ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال الضـحاك: أي في قتلـك القبطي إذ هو نفس لا يحل قتله [٢]. وقيل: أي بنعمتي التي كانت لنا عليك من التـربية والإحسان إليك؛ قاله ابن زيد [٣]. الحسن: ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في أني إلهك [٤]. السّدي: ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بالله لأنك كنت مـعنا على ديننا هذا الذي تعيبه [٥]. وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه نبيّا أحد عشر عاماً غير أشهر [٦]. فـ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ أي فعلت تلك الفعلة يريد قتل القبطي ﴿وَأَنَا﴾ إذ ذاك ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين؛ فنفى عن نفسـه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجـهل. وكذا قال مجـاهد؛ ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من الجاهلين [٧]. ابن زيد: من الجـاهلين بأن الوكزة تبلغ القـتل [٨]. وفي

= للتحريف، وللتصحيف، وارتد بنو سرائيل سبع مرات فتروحوا بين الإيمان والكفر، مع تعرض بني إسرائيل لغارات الفلسطينيين، وسـبى بختنصر، وحدوث أحـداث جسام عظام كقـتل الأنبياء، وغيـرها، ثم اختلاف اليهـود إلى فرق عـدة، مما يعنى الطعن في هذا القـول، وقد تعقب هذا ابـن حزم ـ والله يغفـر له ـ في هذه للتوراة كـما في الملل (١/ ١٣٠، ١٣١) فقد قـام بتتبع دقـيق لتعداد الرجال الـقادرين على القتال، ثم حـصر المسايحة التي تسمت على بني إسرائيل فتبين عدم معقولية الخبر، والله أعلم.

(١) ضعيف: ووجدته بنحوه مطولاً في الزهد للإمام أحمد، وفي سنده إسـماعيل بن عُبد الكريم بن معقل بن منبه أبو هشام الصنعاني وفيه مقال وانظر الزهد برقم (٣٤٢) للإمام أحمد بترقيمي ـ ط ـ دار الحديث.

(٢)ذكره النحاس (٥/ ٧٠) في معاني القرآن غير مسند، وانظر زاد المسير (٤/ ٤٨٨).

(٣) صحيح إليه أو حسن :الطبري (١٩/ ٦٦) في تفسيره واختاره.

(٤)ذكره ابن الجوزي (٤/ ٤٨٨) في زاد المسير غير مسند.

(٥) حسن إليه :الطبري (١٩/ ٦٦)، وانظر السابق (٤/ ٤٨٨).

(٦)هذه مدة الله أعلـم بصحتـها إذ السند إلى موسى عليـه السلام منقطع ولم يصـرح القرآن بهـا، وإنما بالجمع بين القرآن وتفسير ابن عباس مكث موسى عشر سنوات كما في القصص.

(٧) صحيح إليه :الطبرى (١٩/ ٦٧) في تفسيره.

(٨) صحيح إليه :السابق (١٩/ ٦٧).

مصحف عبد الله «من الجاهلين» [١]ويقال لمن جهل شيئاً ضل عنه. وقيل: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من الناسين [٢]؛ قاله أبو عبيدة. وقيل: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن النبوّة ولم يأتني عن الله فيه شيء، فليس عليّ فيما فعلته في تلك الحالة توبيخ. وبيّن بهذا أن التربية فيهم لا تنافي النبوّة والحلم على الناس، وأن القتل خطأ أو في وقت لم يكن فيه شرع لا ينافي النبوّة.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي خرجت من بينكم إلى مَدْين كما في سورة «القصص»: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] وذلك حين القتل. ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ يعني النبوّة؛ عن السّدي وغيره. الزجاج: تعليم التوراة التي فيها حكم الله. وقيل علماً وفهماً. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اختلف الناس في معنى هذا الكلام؛ فقال السّدي والطّبري والفراء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة؛ كأنه يقول: نعم وتربيتك نعمة عليّ من حيث عبّدت غيري وتركتني، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي. وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار؛ أي أتمنّ عليّ بأن ربيتني وليداً وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟ أي ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي؛ فكيف تذكر إحسانك إليّ على الخصوص؟ قال معناه قتادة [٣]وغيره. وقيل: فيه تقدير استفهام؛ أي أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش والفراء أيضاً وأنكره النحاس وغيره. قال النحاس: وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام أم؛ كما قال الشاعر:

تَرُوحُ من الحيّ أم تَبْتَكِر

ولا أعلم بين النحويين اختلافاً في هذا إلا شيئاً قاله الفراء. قال: يجوز حذف ألف الاستفهام في أفعال الشك، وحكى تُرَى زيداً منطلقاً؟ بمعنى أترى. وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنما أخذه من ألفاظ العامة. قال الثعلبيّ: قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة؟ على طريق الاستفهام؛ كقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨] ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] قال الشاعر:

رَفَوْنِي وقالوا يا خُوَيلدُ لا تُرَعْ ... فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

وأنشد الغزنوي شاهداً على ترك الألف قولهم:

لم أنس يوم الرحيل وقفتَها ... وجفنها من دموعها شَرِقُ
وقولَها والركابُ واقفـةٌ ... تَركتني هكـذا وتَنطلقُ

قلت: ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس. وقال الضحاك: إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام؛ والمعنى: لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي؛ فأي نعمة لك علي فأنت تمنّ عليّ بما لا يجب أن تمنّ به [٤]. وقيل: معناه

---

(١) قراءة تفسيرية، وهي غير متواترة: تفسير الطبري (١٩/ ٦٧).

(٢) هذا القول غير موجود في مجاز القرآن لأبي عبيدة، وهو موجود في النكت والعيون (٢/ ١٧٢، ١٧٣) عن أبي زيد.

(٣) صحيح: الطبري (١٩/ ٦٨) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٠/ ٤٠٥) في تفسيره.

(٤) ولعله قول جيد من ناحية الرأى، وذكره البغوي (٦/ ١١٠) دون عزو للضحاك واختاره ابن كثير ـ رحمه الله =

كيف تمنّ بالتربية وقد أهنت قومي؟ ومن أهين قومه ذل. و﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ في موضع رفع على البدل من ﴿نِعْمَةٌ﴾ ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى: لأن عبدت بني إسرائيل؛ أي اتخذتهم عبيداً. يقال: عبدته وأعبدته بمعنى؛ قاله الفراء وأنشد:

عَلاَمَ يُعبِدُنِي قومي وقد كَثُرَت ... فيهم أباعِرُ ما شاؤوا وعِبْدانُ

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۚ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله: رسول رب العالمين؛ فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأشياء. قال مكيّ وغيره: كما يستفهم عن الأجناس فلذلك استفهم بـ﴿مَا﴾. قال مكي: وقد ورد له استفهام بـ«من» في موضع آخر ويشبه أنها مواطن؛ فأتى موسى بالصفات الدالّة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا

= (٦/ ٣٩) في تفسيره.

جنس لله تعالى؛ لأن الأجناس محـدثة، فعلم موسى جهله فأضرب عن سـؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبيِّن للسامع أنه لا مشاركة لفرعـون فيها. فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقـالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعـبودهم والفراعنة قبله كذلك[١]. فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فجاء بدليل يفهـمونه عنه؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغـيِّر، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكوِّن. فقال فرعون حينئـذ على جهة الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي ليس يجيبني عما أسأل؛ فأجاب موسى عليه السلام عن هذا بأن قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أن ليس ملكه كـملكك؛ لأنك إنما تملك بلـداً واحداً لا يجـوز أمرك فـي غيـره، ويموت من لا تحب أن يموت، والذي أرسلني يملك المشـرق والمغرب؛ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقيل: علم مـوسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم. ثم لما انقطع فرعون لعنه الله في باب الحجة رجع إلى الاستعـلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن، ولم يقل مـا دليلك على أن هذا الإله أرسلك؛ لأن فيـه الاعـتراف بأن ثَمَّ إلهـاً غيـره. وفي توعده بالسـجن ضعف. وكان فيـما يروى أنه يفزع منه فزعاً شديداً حـتى كان اللعين لا يمسك بوله. وروي أن سجنه كان أشد من القتل. وكان إذا سجن أحداً لم يخرجه من سجنه حتى يموت، فكان مَخُوفاً. ثم لما كان عند موسى عليه السـلام من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعُـد فرعون ﴿قَالَ﴾ له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فيتضح لك به صدقي، فلـما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه مـوضع معـارضة، فـ﴿قَالَ﴾ له ﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ولم يحتـج الشرط إلى جواب عند سيبويه؛ لأن ما تقدّم يكفي منه. ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ من يده فكان ما أخبر الله من قصته. وقد تقدّم بيان ذلك وشـرحه في «الأعراف»[٢] إلى آخر القصـة. وقال السحرة لما توعـدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا فـيمـا يلحقنا من عذاب الدنـيا؛ أي إنما عذابك سـاعة فنصبـر لها وقد لقينا الله مـؤمنين. وهذا يدلّ على شدّة استبـصارهم وقوّة إيمانهم. قـال مالك: دعا موسى عليه السلام فرعون أربعين سنة إلى الإسلام، وأن السحرة آمنوا به في يوم واحد[٣]. يقال: لا ضَيْر ولا ضَوْر ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ ولا ضارُورة بمعنى واحد؛ قاله الهَرَوِيّ. وأنشد أبو عبيدة:

فإنكَ لا يَضُورك بعدَ حَوْلٍ أظبيٌ كان أُمُّكَ أم حِمَارُ

وقال الجوهري: ضَارَه يَضُوره ويـضيره ضَيْراً وضَوْراً أي ضَرَّه. قال الكسائي: سـمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يَضُورني. والتّضور الصياح والتلوّي عند الضرب أو الجوع. والضُّورَة بالضم الرجل الحقير الصغير الشأن. ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يريد نتقلب إلى رب كريم رحيم ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿أَن﴾ في موضع نصب أي لأن كنا. وأجاز الفراء كسرها على أن تكون

---

(١) قلت: إن فرعون ـ قبحه الله وأخزاه ـ قد حاول بكلامه هذا صرف موسى عليه السلام عن أداء دعوته بشغله في أمور فرعية، وذلك لعدم امتلاكه حجة يرد بها على موسى عليه السلام، وهذا ما يجب أن يتبعه كل من سلك طريقه الدعوة، بألاّ يعير الأمور الفرعية انتباهه.

(٢) عند الآية (١٠٧). (٣) انظر: أحكام القرآن (٣/ ١٤٣٥) لابن العربي المالكي.

مجازاة. ومعنى: ﴿أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون. الفراء: أول مؤمني زماننا. وأنكره الزجاج وقال: قد روي أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفاً[١]، وهم الشِّرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ روي ذلك عن ابن مسعود وغيره[٢].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى. ومعنى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم. وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم؛ فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَراً، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول: هكذا أمرت. فلما أصبح فرعون وعلم بسُرَى موسى ببني إسرائيل، خرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروي أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان. وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً. والله أعلم بصحته[٣]. وإنما اللازم من الآية الذي يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك. قال ابن عباس: كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل. والشِّرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشَّراذم.

(١، ٢) سبق التشكيك في صحة هذا العدد، وهو منقطع بين ابن عبيدة وابن مسعود كما فى تفسير الطبري (١٩/ ٧٥).

(٣) سبق التشكيك فى هذا العدد، ثم هذه آثار مروية بأسانيد فيها مقال عن التابعين، فقد رواه ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٣٠) في تفسيره، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد، وفي إسناده: موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف جداً، وكذا عند الطبري (١٩/ ٧٥) في تفسيره.

ورواه الطبري (١٩/ ٧٥) في تفسيره عن قيس بن عباد، وعن مجاهد، وعن ابن جريج، ورواه ابن أبي حاتم مطولاً عن السدي (١٠/ ٤٣١) في تفسيره، والخبر إلى موسى عليه السلام منقطع، وروى أيضاً عن غيرهم، والسيوطي فى الدر المنثور (٥/ ١٥٩).

قال الجوهري: الشِّرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء. وثوب شراذم أي قطع. وأنشد الثعلبي قول الراجز:

جاء الشتاءُ وثِيَابي أخْلاقْ شَرَاذِمٌ يَضحكُ منها النَّوَّاقْ

النَّوَّاقْ من الرجال الذي يروض الأمور ويصلحها؛ قاله في الصحاح. واللام في قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾ لام توكيد وكثيراً ما تدخل في خبر ﴿إنَّ﴾، إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيداً لسوف يقوم. والدليل على أنه جائز قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[الشعراء: ٤٩] وهذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف؛ قاله النحاس. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ أي أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها على ما تقدم. وماتت أبكارهم تلك الليلة. وقد مضى هذا في «الأعراف»(١) و«طه»(٢) مستوفى. يقال: غاظني كذا وأغاظني. والغيظ الغضب ومنه التغيظ والاغتياظ. أي غاظونا بخروجهم من غير إذن. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي مجتمع أخذنا حذرنا وأسلحتنا. وقرئ ﴿حَاذِرُونَ﴾(٣) ومعناه معنى «حَذِرُونَ» أي فرقون خائفون. قال الجوهري: وقرئ «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ» و«حَذِرُونَ» و«حَذُرُونَ» بضم الذال حكاه الأخفش؛ ومعنى ﴿حَاذِرُونَ﴾ متأهبون، ومعنى: «حَذِرُونَ» خائفون. قال النحاس: «حَذِرُونَ» قراءة المدنيين وأبي عمرو، وقراءة أهل الكوفة ﴿حَاذِرُونَ﴾ وهي معروفة عن عبد الله بن مسعود وابن عباس؛ و«حَادِرُونَ» بالدال غير المعجمة قراءة أبي عبّاد وحكاها المهدوي عن ابن أبي عمار، والماوردي والثعلبي عن سُمَيْط بن عجلان. قال النحاس: أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى «حَذِرُونَ» و﴿حَاذِرُونَ﴾ واحد. وهو قول سيبويه وأجاز: هو حذِرٌ زيدا؛ كما يقال: حاذر زيدا، وأنشد:

حَذِرٌ أُموراً لا تَضِيرُ وآمِنٌ ما ليس مُنْجِيَهُ من الأقدارِ

وزعم أبو عمر الجَرْميّ أنه يجوز هو حذِرٌ زيداً على حذف من. فأما أكثر النحويين فيفرقون بين حذِر وحاذِر؛ منهم الكسائي والفراء ومحمد بن يزيد؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر في خلقته الحذر، أي متيقظ متنبه، فإذا كان هكذا لم يتعدّ، ومعنى حاذر مستعدّ وبهذا جاء التفسير عن المتقدّمين. قال عبد الله بن مسعود في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ قال: مُؤْدون في السلاح والكُراع مُقْوون، فهذا ذاك بعينه(٤). وقوله: مُؤْدون معهم أداة. وقد قيل: إن المعنى: معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال؛ فأما «حادرون» بالدال المهملة فمشتق من قولهم عين حَدْرة أي ممتلئة؛ أي نحن ممتلئون غيظاً عليهم؛ ومنه قول الشاعر:

وعينٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ شُقَّتْ مآقيهمَا مِنْ أُخَرْ

وحكى أهل اللغة أنه يقال: رجل حادِرٌ إذا كان ممتلئ اللحم؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح. المهدوي: الحادر القويّ الشديد.

---

(١) عند الآية (١٣٧).

(٢) عند الآيتين (٧٧، ٧٨).

(٣) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٢).

(٤) إنما هو مقطوع على الأسود بن يزيد، وعلى ابن جريج، موقوف على ابن عباس، كما في تفسير الطبري (١٩/ ٧٧)، وقاله النحاس (٣/ ١٨١) في إعراب القرآن غير مسند.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني من أرض مصر. وعن عبد الله بن عمرو قال: كانت الجنات بحافتي النيل في الشّقتين جميعاً من أسوان إلى رشيد، وبين الجنات زروع. والنيل سبعة خلجان: خليج الإسكندرية، وخليج سَخا، وخليج دمياط، وخليج سَرَدُوس، وخليج مَنْف، وخليج الفيوم، وخليج المَنْهَى متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزروع ما بين الخلجان كلها. وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً بما دبّروا وقدّروا من قناطرها وجسورها وخلجانها [1]؛ ولذلك سمي النيل إذا غلق ستة عشر ذراعاً نيل السلطان، ويُخَلع على ابن أبي الردّاد؛ وهذه الحال مستمرّة إلى الآن. وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذ يجب الخراج على الناس. وكانت أرض مصر جميعها تروى من إصبع واحدة من سبعة عشر ذراعاً، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعاً ونودي عليه إصبع واحد من ثمانية عشر ذراعاً، ازداد في خراجها ألف ألف دينار. فإذا خرج عن ذلك ونودي عليه إصبعاً واحداً من تسعة عشر ذراعاً نقص خراجها ألف ألف دينار. وسبب هذا ما كان ينصرف في المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها. فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادى إصبع من تسعة عشر ذراعاً بمقياس مصر. وأما أعمال الصعيد الأعلى، فإن بها ما لا يتكامل ريّه إلا بعد دخول الماء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى.

قلت: أما أرض مصر فلا تروى جميعها الآن إلا من عشرين ذراعاً وأصابع؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها، وهو من عجائب الدنيا؛ وذلك أنه يزيد إذا انصبت المياه في جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصل إليها إلا بالمراكب والقياسات. وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلل الله له الأنهار؛ فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجّر الله له عيوناً، فإذا انتهى إلى ما أراد الله عز وجل، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. وقال قيس بن الحجاج: لما افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بؤونة من أشهر القبط فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ فقالوا: إذا كان لاثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكر بين أبويها؛ أرضينا أبويها، وحملنا عليها من الحليّ والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل؛ فقال لهم عمرو: هذا لا يكون في الإسلام؛ وإن الإسلام ليهدم ما قبله. فأقاموا أبيب ومسرى لا يجري قليل ولا كثير، وهموا بالجلاء. فلما أرى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فأعلمه بالقصة، فكتب إليه عمر بن الخطاب: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإن الإسلام يهدم ما قبله ولا يكون هذا. وبعث إليه ببطاقة في داخل كتابه. وكتب إلى عمرو: إني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل إذا أتاك كتابي. فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت إنما تجري من قِبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. قال: فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها؛

(١) النحاس (٥/ ٨٢) في معاني القرآن.

لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل. فلمـا ألقى البطاقة في النيل. أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله في ليلة واحدة ستة عشر ذراعـاً، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة [١] . قال كعب الأحبار: أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا سَيْحان وجَيْحان والنيل والفرات. فسيحان نهر الماء في الجنة، وجيحان نهر اللبن في الجنة، والنيل نهـر العسل في الجنة، والفرات نهر الخمر في الجنة[٢]. وقال ابن لَهيعَة: الدجلة نهر اللبن في الجنة[٣].

قلت: الذي في الصحيح من هذا حديث أبي هريرة قال قال رسول اللـه ﷺ: «سَيْحانُ وَجَيْحانُ وَالنِّيلُ وَالْفُراتُ كُلٌّ من أنهار الجنة» [٤] لفظ مسلم. وفي حديث الإسـراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَـعْصَـعة رجل من قومـه قال: وحـدّث نبيّ اللـه ﷺ أنه رأى أربعة أنهـار يخرج من أصلـها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت: «يا جبريل مـا هذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فـالنيل والفرات» لفظ مسلم [٥] . وقال البخـاريّ من طريق شَريك عن أنس «فإذا هو في السمـاء الدنيا بنهرين يَطَّردان [٦] فقال ما هذان النهران يا جـبريل قال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى في السماء فإذا هو بنهر آخر عـليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفـر فقال مـا هذا يا جبريل فـقال هذا هو الكوثر الذي خـبأ لك ربُّك»[٧]. وذكر الحديث. والجمـهور على أن المراد بالعـيون عيـون الماء. وقال سعـيد بن جبـير: المراد عـيون الذهب[٨]. وفي الدخان ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٦]. قيل: إنهم كانـوا يزرعون ما بين الجبلين من أوّل مصر إلى آخرها. وليس في الدخان ﴿وَكُنُوزٍ﴾. ﴿وَكُنُوزٍ﴾ جمع كنز؛ وقد مضى هذا في سورة «براءة». والمراد بها هاهنا الخزائن. وقيل: الدفائن. وقال الضحاك: الأنهار؛ وفيه نظر؛ لأن العيون تشـملـها [٩]. ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال ابن عمـر وابن عباس ومجـاهد: المقام الكريم المنابر[١٠]؛ وكانت ألف مِنبر لألف جبّار يُعظّمـون عليها فرعون ومُلكه [١١] .وقيل: مجالس الرؤساء والأمراء؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول. وقال سعيد بن جبير: المساكن الحسان[١٢]. وقال ابن لـهيعة: سمـعت أن المقام الكريم الفـيوم[١٣]. وقيـل: كان يوسف عليـه السلام قـد كتب على مـجلس من مجالسه (لا إلـه إلا اللـه إبراهيم خليل اللـه) فسماها اللـه كريمة بهذا[١٤]. وقيل: مرابط الخيل لتفرد الزعمـاء بارتباطها عُدّة وزينـة فصار مقـامها أكرم منزل بـهذا؛ ذكره الماوردي. والأظهر أنهـا المساكن

---

(١) رأيته في مناقب عمر (ص١٤٣) لابن الجوزي ـ منقطعًا.

(٢، ٣) كلام من قِبَلَ الرأى ولا دليل له.

(٤، ٥) صحيحان: وقد سبقا .

(٦) يطّردان : يجريان (وهما يفتعلان من الطرد) كما في النهاية (٣/ ١١٧) لابن الأثير .

(٧) صحيح : وقد سبق.

وانظر : الصحيحة (٢٠٥، ٨٨٨، ١٥٣٥) للألباني ـ رحمه الله .

(٨) لم أهتد إليه مسندًا.

(٩ ـ ١٤) أسانيد فـيها مقال ، وإن صح المتن فـهي منقولة عن مسلمة بني إسـرائيل ، وانظر: ابن عطية (١٢/ ٦٣، ٦٤) في المحرر الوجـيز ، والماوردي (٣/ ١٧٥، ١٧٦) في النكت والعيـون . ورواه ابن أبي حاتم (٥/ ٣١٢) في تفسيره ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما كما في فتح القدير (٥/ ٣١٢) للشوكاني.

الحسان كانت تكرم عليها. والمقام في اللغة يكون الموضع ويكون مصدراً. قال النحاس: المقام في اللغة الموضع؛ من قولك قام يقوم، وكذا المقامات واحدها مقامة؛ كما قال:

وفيهم مَقَاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم وأندِيةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ

والمقام أيضاً المصدر من قام يقوم. والمقام بالضم الموضع من أقام. والمصدر أيضاً من أقام يقيم.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل. قال الحسن وغيره: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه [١]. وقيل: أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حليّ آل فرعون بأمر الله تعالى [٢].

قلت: وكلا الأمرين حصل لهم. والحمد لله. ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي فتبع فرعون وقومه بني إسرائيل. قال السدي: حين أشرقت الشمس بالشعاع [٣]. وقال قتادة: حين أشرقت الأرض بالضياء [٤]. قال الزجاج: يقال شَرَقت الشمسُ إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. واختلف في تأخر فرعون وقومه عن موسى وبني إسرائيل على قولين: أحدهما: لاشتغالهم بدفن أبكارهم في تلك الليلة؛ لأن الوباء في تلك الليلة وقع فيهم؛ فقوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ حال لقوم فرعون. الثاني: إن سحابة أظلتهم وظُلْمة فقالوا: نحن بعد في الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا [٥]. وقال أبو عبيدة: معنى ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ ناحية المشرق. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون: «فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ» بالتشديد وألف الوصل؛ أي نحو المشرق؛ مأخوذ من قولهم: شرّق وغرّب إذا سار نحو المشرق والمغرب. ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فاتبع قوم فرعون بني إسرائيل مشرّقين فهلكوا، وورث بنو إسرائيل بلادهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية. ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي قرب منا العدوّ ولا طاقة لنا به. وقراءة الجماعة ﴿لَمُدْرَكُونَ﴾ بالتخفيف من أدرك. ومنه ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠] وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهري «لَمُدَّرَكُونَ» بتشديد الدال من ادّرك. قال الفراء: حفر واحتفر بمعنى واحد، وكذلك ﴿لَمُدْرَكُونَ﴾ و«لَمُدَّرَكُونَ» بمعنى واحد. النحاس: وليس كذلك يقول النحويون الحذّاق؛ إنما يقولون: مُدْرَكون ملحقون، ومدّركون مجتهد في لحاقهم، كما يقال: كسبت بمعنى أصبت وظفرت، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمعَ موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القويّ والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٩٣) غير معزو للحسن.

(٢) هذا لا يصح، فإنهم سرقوها وصنعوا منها العجل ـ كما مضى في سورة طه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) صحيح إليه: ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٢٩) في تفسيره.

(٥) والأول الأشهر بين المؤرخين، والله أعلم، ولكنه مأخوذ من الإسرائيليات أيضًا، ولم يذكر ـ رحمه الله ـ هنا أن المسافة التي يقطعها جيش منظم كجيش فرعون للوصول إلى هذا المكان بعد تجميع هذا الجيش وإصدار الأوامر قد تستغرق مدة طويلة، وهو أمر مشهور في الجيوش النظامية، والله أعلم.

والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فردّ عليهم قولهم وزَجَرهم وذكّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿كَلَّا﴾ أي لم يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ أي بالنصر على العدوّ. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي سيدلّني على طريق النجاة؛ فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه. وقد مضى في «البقرة» [1] قصة هذا البحر. ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، أي الجبل العظيم. والطود الجبل؛ ومنه قول امرئ القيس:

فبينا المرءُ في الأحياءِ طَوْدٌ رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فَمَالاَ

وقال الأسود بن يَعْفُر:

حَلُّوا بأنْقرةٍ يَسيلُ عليهمُ ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أَطْوَادِ

جمع طود أي جبل. فصار لموسى وأصحابه طريقاً في البحر يَبَساً؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدّم في «يونس» [2] انصب عليهم وغرق فرعونُ؛ فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعونُ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه. وروى ابن القاسم عن مالك قال: خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالا له بم أمرك الله؟ قال: أمرت أن أضرب البحر بعصاي هذه فينفلق؛ فقالا له: افعل ما أمرك الله فلن يخلفك؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقاً له؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه، ثم ارتد كما كان. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة» [3].

قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ أي قربناهم إلى البحر؛ يعني فرعون وقومه. قاله ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر:

وكلُّ يوم مَضَى أو ليلةٍ سلَفَتْ فيها النفوسُ إلى الآجال تَزْدَلِفُ

أبو عبيدة: ﴿أَزْلَفْنَا﴾ جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جَمْع. وقرأ أبو عبد الله بن الحارث وأبيّ بن كعب وابن عباس: «وَأَزْلَقْنَا» بالقاف على معنى أهلكناهم؛ من قوله: أزلقت الناقةُ وأزلقت الفرسُ فهي مُزْلِق إذا أزلقت ولدها. ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ يعني فرعون وقومه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي علامة على قدرة الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأنه لن يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وابنته آسية امرأة فرعون، ومريم بنت ذا موسى العجوز التي دلّت على قبر يوسف الصديق عليه السلام. وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال موسى: فأيكم يدري قبره؟ قال: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل؛ فأرسل إليها؛ فقال: دلّيني على قبر يوسف، قالت: لا

(١، ٣) عند الآية (٥٠).

(٢) عند الآية (٩٠).

والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: حكمي أن أكون معك في الجنة؛ فثقل عليه، فقيل له: أعطها حكمها؛ فدلّتهم عليه، فاحتفروه واستخرجوا عظامه، فلما أقلوها، فإذا الطريق مثل ضوء النهار في رواية: فأوحى الله إليه أن أعطها فـفعل، فأتت بهم إلى بحيرة، فقالت لهم: أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام؛ فتبينت لهم الطريق مثل ضوء النهار (١) . وقد مضى في «يوسف». وروى أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ نزل بأعرابي فأكرمه، فقال رسول الله ﷺ: «حاجتك» قال: ناقة أرحلها وأعنزا أحلبها؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل» فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التي احتكمت على موسى أن تكون معه في الجنة (٢).

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ نبّه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوهم. والنبأ الخبر؛ أي اقصص عليهم يا محمد خبره وحديثه وعيبه على قومه ما يعبدون. وإنما قال ذلك ملزماً لهم الحجة. والجمهور من القراء على تخفيف الهمزة الثانية وهو أحسن الوجوه؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو «آدم». وإن شئت حقّقتهما فقلت: ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾. وإن شئت خفّفتهما فقلت: «نبا إبراهيم». وإن شئت خففت الأولى. وثَمَّ وجهٌ خامس إلا أنه بعيد في العربية وهو أن يدغم الهمزة في الهمزة كما يقال رأّاس للذي يبيع الرؤوس. وإنما بعد لأنك تجمع بين همزتين كأنهما في كلمة واحدة، وحسُن في فَعَّال لأنه لا يأتي إلا مدغماً. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي أيّ شيء تعبدون ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب. ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أي فنقيم على عبادتها. وليس المراد وقتاً معيناً بل هو إخبار عما هم فيه. وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، وكانوا في الليل يعبدون الكواكب. فيقال: ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً وبات يفعل كذا إذا فعله ليلاً. ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ قال الأخفش: فيه حذف؛ والمعنى: هل يسمعون منكم؟ أو هل يسمعون دعاءكم؛ قال الشاعر:

القائد الخيلَ منْكُوباً دَوابِرُهَا ... قد أُحْكِمَتْ حَكَمات القدِّ والأبَقَا

قال: والأبَق الكتّان فحذف. والمعنى: وأحكمت حكمات الأبَق. وفي الصحاح: والأبَق

(١، ٢) صحيح مرفوع، وفي الإسناد الموقوف والمقطوع مقال: رواه ابن حبان (٧٢٣) في صحيحه، والحاكم (٣٥٢٣) في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي، ورواه الهيثمي (١٠/ ١٧٠، ١٧١) في مجمع الزوائد وعزاه لأحمد وأبي يعلى وقال: «ورجال أبي يعلى رجال الصحيح»، وصححه الألباني ـ رحمه الله (٣١٣) في الصحيحة، وقد روى موقوفًا عن جمع من الصحابة والتابعين وفى أسانيدهم مقال.

بالتحريك القنَّب. وروي عن قتادة أنه قرأ «هَلْ يُسْمِعُونَكُمْ» بضم الياء؛ أي هل يسمعونكم أصواتهم ﴿إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيراً أو ضراً إن عصيتم؟ وهذا استفهام لتقرير الحجة؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فما معنى عبادتكم لها. ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فنزعوا إلى التقليد من غير حجة ولا دليل. وقد مضى القول فيه. قال إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من هذه الأصنام ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ الأولون ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ واحد يؤدّي عن جماعة، وكذلك يقال للمرأة هي عدوّ الله وعدوّة الله؛ حكاهما الفراء. قال علي بن سليمان: من قال عدوّة الله وأثبت الهاء قال هي بمعنى معادية، ومن قال: عدوّ للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب. ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوّ لي إن عبدتهم يوم القيامة؛ كما قال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]. وقال الفراء: هو من المقلوب؛ مجازه فإني عدوّ لهم لأن من عاديته عاداك. ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الكلبيّ: أي إلا من عبد ربّ العالمين؛ إلا عابد رب العالمين؛ فحذف المضاف. قال أبو إسحاق الزجاج: قال النحويون هو استثناء ليس من الأوّل؛ وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله. وتأوّله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده: فإنهم لو عبدتُهم عدوّ لي يوم القيامة؛ على ما ذكرنا. وقال الجرجاني: تقديره: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لي. وإلا بمعنى دون وسوى؛ كقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦] أي دون الموتة الأولى.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي يرشدني إلى الدين. ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يرزقني. ودخول ﴿هُوَ﴾ تنبيه على أن غيره لا يُطعم ولا يسقي؛ كما تقول: زيد هو الذي فعل كذا؛ أي لم يفعله غيره. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال: ﴿مَرِضْتُ﴾ رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعاً. ونظيره قول فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]. ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب؛ فبيّن أن الله هو الذي يميت ويحيي. وكله بغير ياء: ﴿يَهْدِينِ﴾ ﴿يَشْفِينِ﴾ لأن الحذف في رؤوس الآي حسن لتتفق كلها. وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء؛ لأن الياء اسم وإنما دخلت النون لعلة. فإن قيل: فهذه صفة تجمع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلاً على هدايته ولم يهتد بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها؛ وهذا إلزام صحيح.

قلت: وتجوّز بعض أهل الإرشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم. فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يطعمني لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول. ولهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وجهان: أحدهما: إذا مرضت

بمخالفته شفـاني برحمته. الثاني: إذا مرضت بمقاساة الخلق ، شفاني بمشـاهدة الحق. وقال جعفر بن محمـد الصادق: إذا مرضت بالذنوب شفاني بـالتوبة. وتأولوا قوله: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ على ثلاثة أوجه: فـالذي يميتني بالمعـاصي يحيـيني بالطاعات. الثـاني: يميتني بالخـوف يحيينـي بالرجاء. الثالث: يميتني بالطمع ويحييني بالقناعة. وقول رابع: يميتني بالعدل ويحييني بالفضل. وقول خامس: يميتني بالفراق ويحييني بالتلاق. وقول سادس: يميـتني بالجهل ويحييني بالعقل؛ إلى غير ذلك مما ليس بشيء منه مراد من الآية؛ فإن هذه التـأويلات الغامضة، والأمور البـاطنة، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق، وأما من كان في عـمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور البـاطنة، وتترك الأمور الظاهرة؟ هذا محال. والله أعلم[١].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿أَطْمَعُ﴾ أي أرجو. وقيل: هو بمعنى اليقين في حقه، وبمعنى الرجاء في حق المؤمنين سواه. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق «خَطَايَايَ» وقال: ليست خطيئة واحدة. قال النحاس: خطيئة بمعـنى خطايا معروف في كلام العرب، وقد أجمعوا على التوحيـد في قوله عز وجل: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ [الملك: ١١] ومعناه بذنوبهم. وكذا ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البـقرة: ٤٣] معناه الـصلوات. وكذا ﴿خَطِيئَتِي﴾ إن كانت خطايـا. والله أعلم. قال مجـاهد: يعني بخطيئـته قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] ، وقوله: «إن سـارة أختـه»[٢] . زاد الحـسن: وقـوله للكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] وقـد مضى بيـان هذا مستوفى[٣] . وقال الزجاج: الأنبـياء بشر فيجـوز أن تقع منهم الخطيئة؛ نعم لا تجوز علـيهم الكبائر لأنهم معصـومون عنها. ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء حـيث يجازى العباد بأعـمالهم. وهذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له[٤] . وفي «صحيح مسلم» عن عائشة؛ قالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه إنه لم يقل يوماً :رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[٥] .

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

(١) هذه معانٍ بعيدة عن معـنى الآية ، فإبراهيم عليه السلام يعرفهم بالخالق سبحانه ، فـلا تحتمل كلماته السهلة هذا التأويل البعيـد الذي يشبه كلام المتصوفة والزنادقة منهم والفـلاسفة ، ومستحيل أن يكون في عقـيدة الأنبياء هذا التقعر المقيت ، والتفيهق المذموم شرعًا وعقلاً.

(٢) صحيح إليه : الطبري (١٩/ ٨٤) في تفسيره من طريق ابن أبي نجيح عنه به .

(٣) رواه البغوي (٦/ ١١٨) في تفسيره غير مسند إليه .

(٤) هذه كلام سبق القول ببطلانه .

(٥) صحـيح : مسلم (٢١٤) في الإيمان ، وابن جدعان هو (عـبد الله بن جدعـان) أحد أجواد الجاهليـة، كان من المطعمين فى السنين الممحلة والأوقات المرملة . وانظر: البداية والنهاية (٢/ ٥٩٨) لابن كثير ـ رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿حُكْمًا﴾ معرفة بك وبحدودك وأحكامك؛ قاله ابن عباس(١). وقال مقاتل: فهماً وعلماً؛ وهو راجع إلى الأول. وقال الكلبي: نبوّة ورسالة إلى الخلق(٢)، ﴿أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي بالنبيين من قبلي في الدرجة. وقال ابن عباس: بأهل الجنة(٣)؛ وهو تأكيد قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه(٤). وقال مجاهد: هو الثناء الحسن(٥). قال ابن عطية(٦): هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين؛ وكذلك أجاب الله دعوته، وكل أمة تتمسك به وتعظمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد ﷺ. وقال مكي: وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق؛ فأجيبت الدعوة في محمد ﷺ(٧). قال ابن عطية: وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ. وقال القشيري: أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة في حق كل أحد(٨).

قلت: وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبيّ ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات. والصلاة دعاء بالرحمة، والمراد باللسان القول، وأصله جارحة الكلام. قال القتبي: وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة، وقد تكني العرب بها عن الكلمة. قال الأعشى:

إنِّي أتَتْني لسانٌ لا أُسَرُّ بها ... مِن عَلْو لا عجَبٌ منها ولا سَخَرُ

قال الجوهري: يروى مِن عَلو بضم الواو وفتحها وكسرها. أي أتاني خبر من أعلى، والتأنيث للكلمة. وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر. روى أشهب عن مالك قال: قال الله عز وجل: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحاً ويرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجه الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] أي حبا في قلوب عباده وثناء حسنا، فنبّه تعالى بقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل. الليث بن سليمان: إذ هي الحياة الثانية. قيل:

قد مات قومٌ وهُمُ في النّاس أحيَاءُ

قال ابن العربي(٩): قال المحققون من شيوخ الزهد: في هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن، قال النبيّ ﷺ «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث»(١٠) الحديث وفي رواية إنه كذلك في الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطاً يكتب له عمله إلى يوم القيامة. وقد بيناه في آخر «آل عمران»(١١) والحمد لله.

(١ ـ ٥) البغوي (٦/ ١١٨) في تفسيره، وزاد المسير (٤/ ٤٩٦)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٦ ـ ٨) المحرر الوجيز (١٢/ ٦٨).

(٩) أحكام القرآن (٣/ ١٤٣٦).

(١٠) صحيح: وقد سبق، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(١١) عند الآية (٢٠٠).

obeikandi.com

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها، وهو يرد قول بعضهم: لا أسأل جنة ولا ناراً.

قوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ كان أبوه وعده في الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا، فلما بان أنه لا يفي بما قال تبرأ منه. وقد تقدّم هذا المعنى. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي المشركين. و﴿كَانَ﴾ زائدة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا تفضحني على رؤوس الأشهاد، أو لا تعذبني يوم القيامة. وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة» (١) والغبرة هي القترة. وعنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين» (٢) انفرد بهما البخاري رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ﴾ الأوّل. أي يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً. والمراد بقوله: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ الأعوان؛ لأن الابن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع؟ وقيل: ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم، أي لم ينفعه إبراهيم. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ هو استثناء من الكافرين؛ أي لا ينفعه ماله ولا بنوه. وقيل: هو استثناء من غير الجنس، أي لكن ﴿مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ينفعه لسلامة قلبه. وخص القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح. وقد تقدّم في أوّل «البقرة» (٣). واختلف في القلب السليم فقيل: من الشك والشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد؛ قاله قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين (٤). وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] (٥) وقال أبو عثمان السيَّاري: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة. وقال الحسن: سليم من آفة المال والبنين (٦). وقال الجنيد: السليم في اللغة اللديغ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله. وقال الضحاك: السليم الخالص (٧).

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة؛ والله أعلم. وقد روي عن عروة أنه قال: يا بنيّ لا تكونوا لعّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط، قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨). وقال محمد بن سيرين:

---

(١) صحيح: البخاري (٣٣٥٠) في أحاديث الأنبياء.

(٢) صحيح: البخاري (٤٧٦٩) في التفسير.

(٣) عند الآيات (٧ ـ ١٠).

(٤) صحيح إليهم: الطبري (١٩/ ٨٦) في تفسيره، وهو قول الحسن كما في زاد المسير (٤/ ٤٩٦).

(٥) ذكره ابن الجوزي (٤/ ٤٩٦) في زاد المسير، وابن كثير (٦/ ٤٨) في تفسيره.

(٦) البغوي (٦/ ١١٩) في تفسيره، وابن كثير (٦/ ٤٨) في تفسيره.

(٧) تالف الإسناد: الطبري (١٩/ ٨٦) في تفسيره، وفي إسناده جويبر، عن الضحاك وهو تالف الإسناد.

(٨) أحكام القرآن (٣/ ١٤٣٧) للقاضي ابن العربي المالكي، ورواه ابن أبي حاتم بصيغة التمريض فقال: وذكر، عن عثمان بن علي، عن هشام، عن أبيه به ـ كما في تفسيره (١٠/ ٤٥٩).

القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور[١]. وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «يدخل الجنّة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير»[٢] يريد والله أعلم أنها مثلها في أنها خالية من كل ذنب، سليمة من كل عيب، لا خبرة لهم بأمور الدنيا؛ كما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُلْهُ»[٣] وهو حديث صحيح. أي البُلْه عن معاصي الله. قال الأزهري: الأبله هنا هو الذي طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه. وقال القتبي: البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي قربت وأدنيت ليدخلوها. وقال الزجاج: قرب دخولهم إياها. ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ أي أظهرت ﴿الْجَحِيمُ﴾ يعني جهنم. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ أي الكافرين الذين ضلوا عن الهدى. أي تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم. وهذا كله توبيخ. ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي قلبوا على رؤوسهم. وقيل: دهوروا وألقي بعضهم على بعض. وقيل: جمعوا. مأخوذ من الكَبْكَبَة وهي الجماعة؛ قاله الهرويّ. وقال النحاس: هو مشتق من كَوْكَبِ الشيء أي معظمه. والجماعة من الخيل كَوْكَبٌ وكَبْكَبَة. وقال ابن عباس: جمعوا فطرحوا في النار[٤]. وقال مجاهد: دهوروا[٥]. وقال مقاتل: قذفوا. والمعنى واحد. تقول: دهورت الشيء إذا جمعته ثم قذفته في مَهْوَاة. يقال: هو يدهور اللقم إذا كبرها. ويقال في الدعاء: كَبَّ الله عدوّ المسلمين ولا يقال: أكبه.

(١) صحيح إليه: الطبري (١٩/ ٨٦) فى تفسيره، وابن كثير (١٤٨/٦) في تفسيره، والبغوي (٦/ ١١٩) في تفسيره.
(٢) صحيح: مسلم (٢٨٤٠) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها.
(٣) ضعيف: الهيثمي (٨/ ٧٩) في المجمع، عن أنس ـ رضي الله عنه وعزاه للبزار وقال: «وفيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه أحمد بن صالح وغيره، وروايته عن عقيل وجادة فلم يلقه».
قلت: وفي تهذيب التهذيب (٤/ ٢٥٣): «قال أبو زرعة: ضعيف منكر الحديث فهو إلى الضعف أقرب»، وضعفه الألباني (١٠٩٦) في ضعيف الجامع.
(٤) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما. الطبري (١٩/ ٨٧) في تفسيره.
(٥) ضعيف إليه: السابق (١٩/ ٨٧) من طريق ابن جريج، عن مجاهد وهو منقطع.

وكبكبه، أي كبه وقلبه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ والأصل كبّبوا فأبدل من الباء الوسطى كاف استثقالاً لاجتماع الباءات. قال السدي: الضمير في ﴿كُبْكِبُوا﴾ لمشركي العرب ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ الآلهة. ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذريته. وقيل: كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فاتبعه. وقال قتادة والكلبي ومقاتل: ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ هم الشياطين(١) وقيل: إنما تلقى الأصنام في النار وهي حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذ. ﴿تَاللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا اتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يعبد؛ وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي في العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلدناهم. قال أبو العالية وعكرمة: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ إبليس وابن آدم القاتل هما أوّل من سنّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي(٢). ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ أي شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي صديق مشفق؛ وكان عليّ رضي الله عنه يقول: عليكم بالإخوان فإنهم عدّة الدنيا وعدّة الآخرة؛ ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الزمخشري: وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووحد الصديق لقلته؛ ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته؛ رحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة؛ وأما الصديق فهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما يهمك فأعز من بيض الأَنُوق؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع والحميم القريب والخاص؛ ومنه حامّة الرجل أي أقرباؤه. وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار؛ ومنه الحَمّام والحُمّى؛ فحامّة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه؛ يقال: هم حُزانته أي يحزنهم ما يحزنه. ويقال: حَمّ الشيءُ وأَحَمَّ إذا قرب، ومنه الحُمّى؛ لأنها تقرب من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سمي القريب حميماً؛ لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحميّة. وقال قتادة: يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودّة الصديق ورقة الحميم(٣). ويجوز «وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ» بالرفع على موضع ﴿مِن شَافِعِينَ﴾؛ لأن ﴿مِن شَافِعِينَ﴾ في موضع رفع. وجمع صديق أصدقاء وصُدَقاء وصداق. ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره. وحكى الكوفيون: أنه يقال في جمعه صُدْقان. النحاس: وهذا بعيد؛ لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رغيف ورُغفان. وحكوا أيضاً صديق وأصادق. وأفاعل إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتاً نحو أشجع وأشاجع. ويقال: صديق للواحد والجماعة وللمرأة؛ قال الشاعر:

نَصَبْنَ الهَوَى ثم ارتمين قلوبنا بأعْيُنِ أعْدَاءٍ وهُنّ صَدِيق

---

(١) صحيح إلى قتادة: السابق (١٩/ ٨٧)، وانظر باقي الأقوال عند البغوي (٦/ ١١٩) في تفسيره.

(٢) هو هكذا غير مسند عند البغوي (٦/ ١٢٠) في تفسيره، ورايته عند الطبري (١٩/ ٨٨) في تفسيره من طريق ابن جريج، عن عكرمة.

ورواه ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٦٢) في تفسيره، عن أبي العالية.

(٣) رواه الطبري (١٩/ ٨٨) في تفسيره، وفيه إسحاق بن سعيد البصري المسمعي، عن يحيى بن سعيد المسمعي ولم أعرفهما.

ويقال: فلان صُدَيِّقي أي أخص أصدقائي، وإما يُصَغَّر على جهة المدح؛ كقول حُباب ابن المنذر: «أنا جُذَيْلُها المحكَّك، وعُذَيْقُها المرَجَّب» ذكره الجوهري. النحاس: وجمع حميم أحمَّاء وأحِمَّة وكرهوا أفعلاء للتضعيف. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ ﴿أَنَّ﴾ في موضع رفع، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء. تمنوا حين لا ينفعهم التمني. وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون. قال جابر بن عبد الله قال النبي ﷺ: «إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل فلان وصديقه في الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يشفعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون: مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ»(١). وقال الحسن: ما اجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفَّعون. وقال كعب: إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا، فيمرُّ أحدهما بصاحبه وهو يُجر إلى النار، فيقول له أخوه: والله ما بقي لي إلا حسنة واحدة أنجو بها، خذها أنت يا أخي فتنجو بها مما ترى، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف. قال: فيأمر الله بهما جميعاً فيدخلان الجنة. ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدّم والحمد لله.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: ﴿كَذَّبَتْ﴾ والقوم مذكر؛ لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح، وقال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل. وقيل: كذبوا نوحاً في النبوّة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده. وقيل: ذكر

---

(١) ضعيف: البغوي (٦/ ١٢٠) في تفسيره، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد ساقه البغوي من طريق الثعلبي وفيه:

- الوليد بن مسلم وهو يدلس تدليس التسوية.
- وقد أبهم الوليد من سماع أبي الزبير، عن جابر.

فالإسناد ضعيف لا محالة.

الجنس والمراد نوح عليه السلام. وقـد مضى هذا في «الفرقان»[١]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ أي ابن أبيهم وهي أخـوة نسب لا أخوة دين. وقيل: هي أخوة المجـانسة[٢]. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] وقد مضى هذا في «الأعراف». وقيل: هو من قول العرب: يا أخا بني تميم. يريدون يا واحداً منهم. الزمخشري: ومنه بيت الحماسة:

لا يَسْألون أخاهم حينَ يَنْدُبُهم ... في النَّائبات على ما قال بُرْهَانَا

﴿أَلا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تتقون الله في عبادة الأصنام. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى. وقيل: ﴿أَمِينٌ﴾ فيما بينكم؛ فإنهم كانوا عرفوا أمـانته وصدقه من قبل؛ كمحمد ﷺ في قريش. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي فاستتروا بطاعـة الله تعالى من عقابه. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من الإيمان. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا طمع لي في مالكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما جزائي ﴿إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرر تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أي نصدق قولك. ﴿وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ الواو للحال وفيه إضمار قد، أي وقد اتبعك. ﴿الأَرْذَلُونَ﴾ جمع الأرذل، المكسر الأراذل والأنثى الرُّذْلَى والجمع الرُّذَّل. قال النحاس: ولا يـجوز حذف الألف واللام في شيء من هذا عند أحد من النحـويين علمناه. وقرأ ابن مسـعود والضحـاك ويعقوب الحـضرمي وغيـرهم «وأَتْبَاعُكَ الأَرْذَلُون»[٣]. النحاس: وهي قراءة حسنة؛ وهذه الواو أكـثرها تتبـعها الأسمـاء والأفعال بـ«قـد». وأتباع جمع تبع وتبـيع يكون للواحد والجمع. قال الشاعر:

له تَبَعٌ قد يعلمُ الناسُ أنّه ... على من يُدانِي صَيِّف ورَبِيعُ

ارتفاع «أَتْبَاعُكَ» يجـوز أن يكون بالابتداء و﴿الأَرْذَلُونَ﴾ الخبر؛ التـقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضـمير في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ والتقدير: أنؤمن لك نحن وأتباعك الأرذلون فنعدّ منهم؛ وحـسن ذلك الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾ وقد مـضى القول في الأراذل في سورة «هود»[٤] مستوفًى. ونزيده هنا بياناً وهي المسألة:

الثانية: فقيل: إن الذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكناته وبنو بنيه. واختلف هل كان معهم غيرهم أم لا. وعلى أي الوجهين كـان فالكل صالحون؛ وقـد قال نوح: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والذين معه هم الذين اتبـعوه، ولا يلحقهم من قول الكفـرة شين ولا ذمّ بل الأرذلون هم المكذبون لهم. قال

(١) عند الآية (٣٧)

(٢) وفي هذا ردٌ على القائلين بإخوة المسلمين وغير المسلمين ليهدموا عقيدة الولاء والبراء فيميعوها باسم الدين ،قاتلهم الله أنى يؤفكون.

(٣) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص١٥٢).

(٤) عند الآية (٢٧) .

السهيلي: وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت في تفسير هذه الآية: هم الحاكَة والحجّامون. ولو كانوا حاكة كما زعموا لكان إيمانهم بنبيّ الله واتباعهم له مشرِّفاً كما تشرَّف بِلالٌ وسَلْمَان بسبقهما للإسلام؛ فهما من وجوه أصحاب النبيّ ﷺ ومن أكابرهم، فلا ذرية نوح كانوا حاكة ولا حجّامين، ولا قول الكفرة في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتنا ذمّاً ولا نقصاً؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقالتهم أصلاً؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة في الدين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «كان» زائدة؛ والمعنى: وما علمي بما يعملون؛ أي لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالحِرَف والصّنائع؛ وكأنهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال. فقال: إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم. وقيل: المعنى إني لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويرشدهم ويغويكم ويوفقهم ويخذلكم. ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي في أعمالهم وإيمانهم ﴿إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ أي لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لما عبتموهم بصنائعهم. وقراءة العامّة: ﴿تَشْعُرُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر. وقرأ ابن أبي عَبْلَة ومحمد بن السَّمَيْقَع: «لو يشعرون» بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم؛ نحو قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]. وروي أن رجلاً سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهي مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾. ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لخساسة أحوالهم وأشغالهم. وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش. ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: إن الله ما أرسلني أخص ذوي الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به، فمن أطاعني فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيراً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾ أي عن سبّ آلهتنا وعيب ديننا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي بالحجارة؛ قاله قتادة(١). وقال ابن عباس ومقاتل: من المقتولين(٢). قال الثُّمَالِيّ: كل مرجومين في القرآن فهو القتل إلا في مريم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] أي لأسبنك. وقيل: ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ من المشتومين؛ قاله السدي(٣). ومنه قول أبي دؤاد: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ذلك لما يئس من إيمانهم. والفتح الحكم وقد تقدم. ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها. والمشحون المملوء، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم. ولم يؤنث الفلك هاهنا؛ لأن الفلك هاهنا واحد لا جمع ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ أي بعد إنجائنا نوحاً ومن آمن. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

---

(١) صحيح إليه: ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٦٨) في تفسيره.

(٢) هو قول مقاتل كما عند البغوي (٦/ ١٢١) في تفسيره غير مسند.

(٣) صحيح إليه: ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٦٨) في تفسيره.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة. وتكذيبهم المرسلين كما تقدم. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بيّن المعنى وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ الرِّيع ما ارتفع من الأرض[(١)] في قول ابن عباس وغيره، جمع ريعة. وكم ريع أرضك أي كم ارتفاعها. وقال قتادة: الرِّيع الطريق. وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدي. وقاله ابن عباس أيضاً[(٢)].

ومنه قول المسيب بن عَلَس:

في الآلِ يَخفِضُها ويَرفَعُها ... رِيعٌ يَلُوحُ كأنَّه سَحْلُ

شبّه الطريق بثوب أبيض. النحاس: ومعروف في اللغة أن يقال لما ارتفع من الأرض ريعٌ وللطريق ريعٌ. قال الشاعر:

طراقُ الخَوَافي مُشرق فَوْقَ رِيعَةٍ ... نَدَى ليلِه في ريشه يَتَرَقرقُ

وقال عمارة: الريع الجبل الواحد ريعة والجمع رِياع. وقال مجاهد: هو الفجّ بين الجبلين[(٣)]. وعنه الثنّية الصغيرة[(٤)]. وعنه: المنظرة[(٥)]. وقال عكرمة ومقاتل: كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالاً طوالاً ليهتدوا بها، يدل عليه قوله تعالى: ﴿آيَةً﴾ أي علامة. وعن مجاهد:

---

(١) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (١٩/ ٩٢) في تفسيره، وهو منقطع بين علي بن أبي طلحة الوالبي، وابن عباس ـ رضي الله عنهما، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٧٥).

(٢) صحيح إلى قتادة، وضعيف إلى ابن عباس: الطبري (١٩/ ٩٣)، (١٩/ ٩٢) على الترتيب، ومنقطع إلى الضحاك.

رواه ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٧٦) عن ابن عباس من طريق العوفيين.

(٣) كذا غير مسند عند الماوردي، ورأيته صحيحًا عند ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٧٥) في تفسيره من طريق ابن أبي نجيح به، ومنقطعًا، من طريق ابن جريج به.

(٤) صحيح إليه: الطبري (١٩/ ٩٣) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٠/ ٤٧٥) في تفسيره.

(٥) انظر: فتح القدير (٥/ ٣٢١) للشوكاني.

الريع بنيان الحَمَام[١] دليله ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي تلعبون؛ أي تبنون بكل مكان مرتفع آية علَما تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها. وقيل: تعبثون بمن يمرّ في الطريق. أي تبنون بكل موضع مرتفع لتشرفوا على السابلة فتسخروا منهم. وقال الكلبي: إنه عبث العشّارين بأموال من يمر بهم[٢]؛ ذكره الماوردي. وقال ابن الأعرابي: الريع الصومعة، والرّيع البرج من الحمام يكون في الصحراء. والرّيع التلُّ العالي. وفي الرّيع لغتان؛ كسر الراء وفتحها وجمعها أرياع؛ ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي منازل؛ قاله الكلبي. وقيل: حُصُونا مشيدة؛ قاله ابن عباس ومجاهد[٣]. ومنه قول الشاعر:

تَرَكْنَا ديارَهُم مِنهم قِفَاراً وهَدَّمْنا المصانعَ وَالْبُرُوجَا

وقيل: قصوراً مشيدة؛ وقاله مجاهد أيضاً. وعنه؛ بروج الحمام[٤]؛ وقاله السدي.

قلت: وفيه بعدٌ عن مجاهد؛ لأنه تقدّم عنه في الريع أنه بنيان الحمام فيكون تكراراً في الكلام. وقال قتادة: مآجِل للماء تحت الأرض. وكذا قال الزجاج: إنها مصانع الماء، واحدتها مُصْنَعَةٌ ومَصْنَعٌ. ومنه قول لَبِيد:

بَلِينا وما تَبْلَى النجومُ الطوالعُ وتبقَى الجبالُ بَعْدَنا والمصَانِعُ

الجوهري: المصنَعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنُعة بضم النون. والمصانع الحصون. وقال أبو عبيدة: يقال لكل بناء مصنعة. حكاه المهدوي. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي كي تخلدوا. وقيل: «لعل» استفهام بمعنى التوبيخ أي فهل ﴿تَخْلُدُونَ﴾ كقولك: لعلك تشتمني أي هل تشتمني. روي معناه عن ابن زيد. وقال الفراء: كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت. وقال ابن عباس وقتادة: كأنكم خالدون باقون فيها[٥]. وفي بعض القراءات «كَأَنَّكُمْ تُخَلِّدُون» ذكره النحاس. وحكى قتادة: أنها كانت في بعض القراءات «كأنكم خالدون»[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطش السطوة والأخذ بالعنف. وقد بَطَش به يبطُش ويبطِش بطشاً. وباطشه مباطشة. وقال ابن عباس ومجاهد: البطش العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط[٧]. ومعنى ذلك: فعلتم ذلك ظلماً. وقال مجاهد أيضاً: هو ضرب بالسياط[٨]؛ ورواه مالك

(١، ٤) في إسناده نظر : ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٧٦) في تفسيره.

(٢) ذكره الشوكاني (٥/ ٣٢٢) في فتح القدير غير مسند .

(٣) صحيح إلى مجاهد : الطبري (١٩/ ٩٤) في تفسيره .

(٥) ضعيف إلى ابن عباس وصحيح إلى قتادة : للانقطاع بينه وبين علي بن أبي طلحة الوالبي، ورواهما الطبري (١٩/ ٩٤) في تفسيره ، وهما عند ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٧٨) في تفسيره.

(٦) هي قراءة محمولة على التفسير وإلا فهي شاذة .

(٧، ٨) صحيح بمجموع طرقه إلى مجاهد : ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٧٩) في تفسيره ، وقول ابن عباس من رواية الضحاك كما في السابق (١٠/ ٤٧٨) . ومعنى جبارين : أقوياء ، ولم أجد قول القرطبي مسنداً ، والله أعلم.

ابن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي[١]. وقيل: هو القتل بالسيف في غير حق. حكاه يحيى بن سَلاّم. وقال الكلبي والحسن: هو القَتل على الغضب من غير تثبت. وكله يرجع إلى قول ابن عباس. وقيل: إنه المؤاخذة على العمْد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء. قال ابن العربي[٢]: ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:١٩] ، وذلك أن موسى عليه السلام لم يسل عليه سيفاً ولا طعنه برمح، وإنما وكزه وكانت منيّته في وكزته. والبطش يكون باليد وأقله الوكز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد، والكل مذموم إلا بحق. والآية نزلت خبراً عمن تقدّم من الأمم، ووعظاً من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم.

قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية؛ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق. وقد أخبر ﷺ أن ذلك يكون. كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخْت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإنّ ريحها ليُوجَد من مسيرة كذا وكذا»[٣]. وخرج أبو داود من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٤]. ﴿جَبَّارِينَ﴾ قتّالين. والجبار القتال في غير حق. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:١٩] قاله الهروي. وقيل: الجبار المتسلّط العاتي؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥] أي بمسلَّط. وقال الشاعر:

سَلَبْنَا من الجَبَّار بالسّيف مُلْكَهُ عَشيًّا وأطرافُ الرِّمَاحِ شَوَارِعُ

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تقدم. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي من الخيرات؛ ثم فسرها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن كفرتم به وأصررتم على ذلك. ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نلوي على ما تقوله. وروى العباس عن أبي عمرو وبِشْر عن الكسائي: «أَوَعَظْتَ» مدغمة الظاء في التاء وهو بعيد؛ لأن الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جداً وكان مثلَه ومخرجَه. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي دينهم؛ عن ابن عباس وغيره[٥]. وقال الفرّاء: عادة الأوّلين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «خَلْقُ الأَوّلِينَ». الباقون ﴿خُلُقُ﴾. قال الهروي: وقوله عز وجل: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾

(١، ٢) صورة إسناده صحيح ، وانظر: أحكام القرآن (٣/ ١٤٣٧) .

(٣) صحيح : مسلم (٢١٢٨/ ١٢٥) في اللباس والزينة .

(٤) صحيح: أبو داود (٣٤٦٢) في البيوع، وصححه الألباني هناك، وفي الصحيحة برقم (١١).

(٥) ضعيف إليه : للانقطاع بينه وبين علي بن أبي طلحة الوالبي كما عند الطبري (١٩/ ٩٩) في تفسيره .

أي اختلاقهم وكذبهم، ومن قرأ: ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ فمعناه عادتهم، والعرب تقول: حدّثنا فلان بأحاديث الخَلْق أي بالخرافات والأحاديث المفتعلة. وقال ابن الأعرابي: الخلقُ الدين والخلقُ الطبع والخلق المروءة. قال النحاس: ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ عند الفراء يعني عادة الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ مذهبهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر: والقولان متقاربان، ومنه الحديث عن النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً»(١) أي أحسنهم مذهباً وعادة وما يجري عليه الأمر في طاعة الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجراً فاضلاً، ولا أن يكون أكمل إيماناً من السيّىء الخلق الذي ليس بفاجر. قال أبو جعفر: حكي لنا عن محمد بن يزيد أن معنى ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ تكذيبهم وتخرصهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى؛ لأن فيها مدح آبائهم، وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مدحهم لآبائهم، وقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٣]. وعن أبي قِلابَة: أنه قرأ «خُلْق» بضم الخاء وإسكان اللام تخفيف ﴿خُلُق﴾. ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع. وقد قيل: إن معنى ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ دين الأولين. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء:١١٩] أي دين الله. و﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ عادة الأولين: حياة ثم موت ولا بعث. وقيل: ما هذا الذي أنكرت علينا من البنيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقتدي بهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نفعل. وقيل؛ المعنى خلق أجسام الأوّلين؛ أي ما خلقنا إلا كخلق الأوّلين الذين خلقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيء مما تحذرنا به من العذاب. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي بريح صرصر عاتية على ما يأتي في «الحاقة». ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال بعضهم: أسلم معه ثلثمائة ألف ومئون وهلك باقيهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

(١) حسن صحيح: أبو داود (٤٦٨٢) في السنة، والترمذي (١١٦٢) في الرضاع وصححه الألباني في الموضعين، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود؛ وكانوا يسكنون الحجْر كما تقدّم في «الحجر»[١]، وهي ذوات نخل وزروع ومياه. ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ يعني في الدنيا آمنين من الموت والعذاب. قال ابن عباس: كانوا معمّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم[٢]. ودلّ على هذا قوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، فقرّعهم صالح ووبخّهم وقال: أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ الزمخشري: فإن قلت لم قال: ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعد قوله: ﴿جَنَّاتٍ﴾ والجنات تتناول النخل أوّل شيء كما يتناول النَّعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل كما يذكرون النَّعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير:

كَأَنَّ عَيْنَيَّ فِي غَرْبَي مُقَتَّلَةٍ ... من النَّواضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقاً

يعني النخل؛ والنخلة السَّحُوق البعيدة الطول.

قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عنها. والثاني: أن يريد بالجنات غيرها من الشجر؛ لأن اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل. والطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف؛ في جوفه شماريخ القِنو، والقنو اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه. و﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس: لطيف ما دام في كُفُرّاه. والهضيم اللطيف الدقيق[٣]؛ ومنه قول امرئ القيس:

عَلَيَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ

الجوهري: ويقال للطلع هَضيم ما لم يخرج من كُفُرّاه؛ لدخول بعضه في بعض. والهضيم من النساء اللطيفة الكشحين. ونحوه حكى الهروي؛ قال: هو المنضم في وعائه قبل أن يظهر؛ ومنه رجل هضيم الجنبين أي منضمهما؛ هذا قول أهل اللغة. وحكى الماوردي وغيره في ذلك اثنى عشر قولاً[٤]: أحدها: أنه الرطب اللين؛ قاله عكرمة. الثاني: هو المذنّب من الرطب؛ قاله سعيد بن جبير. قال النحاس: وروى أبو إسحاق عن يزيد هو ابن أبي زياد كوفي ويزيد بن أبي مريم شامي ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: منه ما قد أرطب ومنه مذنّب. الثالث: أنه الذي ليس فيه نوى؛ قاله

---

(١) عند الآية (١٨٠).

(٢) لم أهتد إليه مسندًا، وقد سبق بنحوه ضعيفًا مرفوعًا.

(٣) ذكره البغوي غير مسند (٦/ ١٢٤) في تفسيره، وإنما نسب قول: (لطيف) إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما والباقى قال: من قول أهل اللغة.

(٤) قوله: اليانع النضيج لابن عباس ضعيف ـ كما عند الطبري (١٩/ ٩٩) في تفسيره لأنه من طريق العوفيين واختاره الطبري.

ـ وقول عكرمة ضعيف كما في السابق(١٩/ ٩٩) بسبب رواية سماك عنه.

ـ وقول مجاهد صحيح إليه كما في السابق.

ـ وقول الضحاك منقطع كما عند ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٩)

ـ وباقى الأقوال انظرها عند: البغوي (٦/ ١٢٤) في تفسيره غير مسنده، وفى زاد المسير (٥/ ٣) لابن الجوزي ـ رحمه الله.

ـ وقوله عن يزيد: إنما هو ابن راشد كما ذكره ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٨٩) في تفسيره.

ـ وقول الحسن حسن أيضًا.

ـ وقول الضحاك تالف الإسناد، لأنه من طريق جويبر كما في السابق (١٠/ ٤٨٩).

الحسن. الرابع: أنه المتهشم المتـفتت إذا مس تفتت؛ قاله مجاهد. وقال أبو العـالية: يتهشم في الفم. الخامس: هو الذي قد ضمر بركوب بعضه بعضاً؛ قاله الضحاك ومقاتل. السادس: أنه المتلاصق بعضه ببعض؛ قـاله أبو صخر. السابع: أنه الطلـع حين يتفرق ويخضـر؛ قاله الضحاك أيضـاً. الثامن: أنه اليانع النضيج؛ قاله ابن عباس. التاسع: أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر؛ حكاه ابن شجرة؛ قال:

كأنّ حَمولةً تُجلَى عليهِ هَضِيمٌ ما يُحسُّ له شُقُوقُ

العاشر: أنه الرخـو؛ قاله الحسن. الحادي عشر: أنه الرخـص اللطيف أوّل ما يخرج وهو الطلع النَّضِيدُ؛ قـاله الهروي. الثاني عشـر: أنه البَرْنِي[1]؛ قاله ابن الأعرابي؛ فـعيل بمعنى فاعل أي هنيء مريء من انهـضام الطعام. والطلع اسم مشـتق من الطلوع وهو الظهور؛ ومنه طلوع الشمس والـقمر والنبات.

قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ النَّحت النَّجر والبَرْي؛ نحته ينحته (بالكسر) نحتاً إذا براه والنُّحَـاتة البُـرَاية. والمِنْحَت مـا ينحت به. وفي «وَالصَّـافَات» قـال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]. وكانوا ينحتونها من الجبال لما طالت أعـمارهم وتهدّم بناؤهم من المدر. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: ﴿فَرِهِينَ﴾[2] بغير ألف. الباقون: ﴿فَارِهِينَ﴾ بألف وهما بمعنى واحد في قول أبي عبيدة وغيره؛ مثل: ﴿عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١١] و«نَاخِرَة». وحكاه قطرب. وحكى فَرُهَ يفرُه فهو فاره وفَرِهَ يفـرَه فرِهٌ وفاره إذا كـان نشيطاً. وهو نصب على الحـال. وفرق بينهـما قوم فـقالوا: ﴿فَارِهِينَ﴾ حاذقين بنحتـها؛ قاله أبو عبيدة؛ وروي عن ابن عـباس وأبي صالح[3] وغيرهما. وقـال عبد الله بن شدّاد: ﴿فَارِهِينَ﴾ متـجبـرين. وروي عن ابن عبـاس أيضاً أن مـعنى: «فَرِهِينَ» بـغير ألف أشـرين بطرين[4]؛ وقاله مجاهد[5]. وروي عنه شرهين[6]. الضحاك: كيِّسين[7]. قتادة: معجبين[8]؛ قاله الكلبي؛ وعنه: ناعـمين. وعنه أيضاً آمنين؛ وهو قـول الحسن[9]. وقيل: مـتخـيرين؛ قـاله الكلبي والسدي[10]. ومنه قول الشاعر:

إلى فَرِهٍ يماجد كلَّ أمرٍ قصدتُ له لأختبر الطِّباعَا

وقيـل: متعـجبين؛ قـاله خُصَـيف. وقال ابن زيد: أقـوياء[11]. وقيل: فـرهين فرحين؛ قـاله

---

(١) البرني: ضرب (نوعٌ) من التمر أحمر مُشْرَبٌ بصُفْرةٍ كثير اللُّحاء عذب الحلاوة. اللسان «برن».

(٢) قراءة سبعية متواترة: تقريب النشر (ص١٥٢).

(٣) ضعيف إلى ابن عباس صحيح إلى أبي صالح: الطبري (١٩/ ٩٩) في تفسيره.

(٤) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري في السابق (١٩/ ٩٩) من طريق العوفيين، وهو حسن إلى عبد الله بن شداد.

(٥، ٦) صحيح إلى مجاهد: السابق (١٩/ ١٠٠).

(٧) ضعيف إليه: الطبري (٩/ ٩٩) في تفسيره من طريق ابن حميد وهو متهم، وابن أبي حاتم (١٠/ ٤١١) في تفسيره من طريق جويبر.

(٨) صحيح: ابن أبي حاتم (١٠/ ٤٩٢) في تفسيره.

(٩) وهو قول قتادة كما في السابق (١٠/ ٤٩٢).

(١٠) ذكره البغوي (٦/ ١٢٥) في تفسيره غير مسند.

(١١) صحيح إليه: الطبري (١٩/ ١٠٠). في تفسيره

الأخفش. والعـرب تعاقب بين الهاء والحاء؛ تقـول: مدهته ومدحـته؛ فالفره الأشر الفـرح ثم الفرح بمعنى المَرح مذموم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: المراد الذين عـقروا الناقة. وقيل: التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. قال السّدي وغيره: أوحى الله تعالى إلى صـالح: إن قومك سيـعقرون ناقتك؛ فـقال لهم ذلك، فقـالوا: ما كنا لنفعل. فـقال لهم صالح: إنه سيولد في شهركم هذا غـلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه؛ فقالوا: لا يولد في هذا الشهر ذكر إلا قتلناه. فولد لتسعة منهم من ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك. وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نبـاتاً سريعاً؛ وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا. وغضـب التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصـبوا وتقاسموا بالله لنبيـتنه وأهله. قالوا: نخرج إلى سفر فتـرى الناس سفرنا فنكون في غار، حتى إذا كان الليل وخـرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا مـا شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون؛ فيـصدّقوننا ويعلمون أنا قد خـرجنا إلى سفر. وكان صالح لا ينام معـهم في القرية وكان يأوي إلى مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقـتلهم، فرأى ذلك ناس ممن كان قـد اطلع على ذلك، فصاحـوا في القرية: يا عبـاد الله أما رضي صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم؛ فـأجمع أهل القرية على قتل الناقة[١]. وقال ابن إسحاق: إنما اجتمع التسـعة على سبّ صالح بعد عقرهم الناقة وإنذارهم بالعـذاب على ما يأتي بيانه في سورة «النمل»[٢] إن شاء الله تعالى. ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ هو من السحر[٣] في قول مجاهد وقتادة على ما قـال المهدوي. أي أصـبت بالسحر فـبطل عقلك؛ لأنك بشـر مثلنا فلم تدّع الـرسالة دوننا. وقيل: من المعلَّلين بالطعـام والشراب[٤]؛ قاله ابن عـباس والكلبي وقتـادة ومجاهد أيضـاً فيمـا ذكر الثعلبي. وهو على هذا القول من السَّحر وهو الرئة أي بشر لك سَحْر أي رئة تأكل وتشرب مثلنا كما قال لبيد:

فإن تسألينا فِيمَ نحن فإنَّنَا عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

وقال امرؤ القيس:

ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشَّرَاب

﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قولك. ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال ابن عباس: قـالوا: إن كنت صادقاً فـادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حـمراء عشراء فـتضع ونحن ننظر، وترد هذا الماء فتـشرب وتغدو علينا بمثلـه لبنا. فدعـا الله وفعل الله ذلك فـ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا

(١) هذه موقوفات ومقاطيع الله أعلم بصحتها متنًا وفى أسانيدها مقال، وانظر: البداية والنهاية (١/ ١٥٧) لابن كثير ـ رحمه الله.

(٢) عند الآية (٤٨).

(٣) صحيح إليهما: الطبري (١٩/ ١٠١) في تفسيره.

(٤) ضعيف إلى ابـن عباس: رواه عنه أبو صالح وهو كـذاب، والراوى عنه موسى بن عمرو ولا أعـرفه، ولو كان الذي أعرفه فهو مستور، وانظر: تفسير الطبري (١٩/ ١٠١).

شِرْبٌ﴾ أي حظ من الماء؛ أي لكم شرب يوم ولها شرب يوم؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أوّل النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً (١). قال الفراء: الشِّرب الحظ من الماء. قال النحاس: فأما المصدر فيقال فيه شرب شَرْباً وشُرباً وشِرباً وأكثرها المضمومة؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شيء آخر فيكون الشِّرب الحظ من الماء، ويكون الشَّرْب جمع شارب كما قال [الأعشى]:

فقلتُ للشَّرْب في دُرْنا وقد ثَمِلُوا

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشَّرب بالفتح في المصدر، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبيّ ﷺ قال: «إنها أيام أكل وشَرْب»(٢). ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا؛ لأنهما حرفان متحرّكان من جنس واحد. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهي، ولا يجوز حذف الفاء منه، والجزم كما جاء في الأمر إلا شيئاً روي عن الكسائي أنه يجيزه. ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ أي على عقرها لما أيقنوا بالعذاب. وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامة في كل يوم، وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب. وقيل: لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها. وهو بعيد. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إلى آخره تقدّم. ويقال: إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانمائة رجل وامرأة. وقيل: كانوا أربعة آلاف. وقال كعب: كان قوم صالح اثنى عشر ألف قبيل كل قبيل نحو اثنى عشر ألفا من سوى النساء والذرّية، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات(٣).

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ مضى معناه وقصته في «الأعراف» و«هود» مستوفى

(١) وجدته عند ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٤٩٤) مسنداً إلى أبي الطفيل، و(١٠/ ٤٩٥) بسند فيه شهر بن حوشب وهو إلى الضعف أقرب.

(٢) صحيح: وقد سبق.

(٣) ومن أين لكعب ـ رحمه الله ـ هذا أو لغيره، والإسناد مما اختصَّ الله تعالى به هذه الأمة، فلا إسناد ممدود إلى صالح عليه السلام وقومه، ولو كان في العدد فائدة لذكره الله سبحانه.

والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدّم في «الأعراف». ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ يعني فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح. قال إبراهيم بن مهاجر: قال لي مجـاهد كيف يقرأ عبد الله «وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَ جِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَـادُونَ» قلت: «وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم» قـال: الفرج[١]؛ كما قال: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي متجاوزون لحدود الله.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن قـولك هذا. ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُـخْـرَجِينَ﴾ أي من بلدنا وقـريتنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ يعني اللواط ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي المبغضين والقلي الـبغض؛ قليته أقليه قِلىً وقَـلاء. قال [امرؤ القيس]:

فلستُ بمقلّي الخِلالِ ولا قَالِي

وقال آخر:

عليك السلامُ لا مُلِلت قريبةً ... ومَالَكِ عندي إن نأيتِ قَلاَءُ

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من عذاب عملهم. دعا الله لما أيس من إيمانهم ألا يصيبه من عذابهم.

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدّم في «هود». ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ روى سعيد عن قتادة قال: غبرت في عذاب الله عز وجل أي بقيت[٢]. وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقين في الهَـرَم أي بقيت حتى هَرِمت. قال النحاس: يقـال للذاهب غابر والباقي غابر كما قال [الحارث بن حلزة]:

لا تكْسَعِ الشَّوْل بأغْبَارِهَا ... إنّكَ لا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ

وكما قال [العجاج]:

فما ونَى محمدٌ مذ أنْ غفَرْ ... له الإلهُ ما مَضَى وما غَبَرْ

أي ما بقي. والأغبار بقيات الألبان. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أهلكناهم بالخسف والحصب؛ قال مقاتل: خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجاً من القرية. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ يعني الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ وقيل: إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها الله بالحجارة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ

(١) ذكره الطبري (١٩/ ١٠٣) في تفسيره غير مسند، وإبراهيم بن مهاجر هذا هو الكوفي ليس بالقوى كما فى الضعفاء والمتروكين (١/ ١١) للنسائى - رحمه الله - وتكلم فيه أحمد ويحيى وابن حبان والدارقطني كما في تهذيب التهذيب (١/ ١٤٦) لابن حجر.

وذكره ابن أبي حاتم (١١/ ٤) في تفسيره موصولاً - من طريقه، وفيه شريك وهو سيئ الحفظ.

(٢) صحيح إليه: ابن أبي حاتم (١١/ ٦) في تفسيره.

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة أيكة. ومن قرأ: ﴿أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ فهي الغيضة. ومن قرأ «لَيْكَةَ» فهو اسم القرية. ويقال: هما مثل بكة ومكة؛ قاله الجوهري. وقال النحاس: وقرأ أبو جعفر ونافع: «كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ»[1] وكذا قرأ في «ص». وأجمع القراء على الخفض في التي في سورة «الحجر» والتي في سورة «ق» فيجب أن يرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحداً. وأما ما حكاه أبو عبيد من أن «ليكة» هي اسم القرية التي كانوا فيها وأن ﴿الأَيْكَةِ﴾ اسم البلد فشيء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر؛ لأن أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه. وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال: أرسل شعيبٌ عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال: والأيكة غيضة من شجر ملتف[2]. وروى سعيد عن قتادة قال: كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت عامّة شجرهم الدوم وهو شجر الْمُقل[3]. وروى ابن جبير[4] عن الضحاك قال: خرج أصحاب الأيكة يعني حين أصابهم الحرّ فانضموا إلى الغيضة والشجر، فأرسل الله عليهم سحابة فاستظلوا تحتها، فلما تكاملوا تحتها أُحرقوا[5]. ولو لم يكن هذا إلا ما روي عن ابن عباس قال: و﴿الأَيْكَةِ﴾ الشجر. ولا نعلم بين أهل اللغة اختلافاً أن الأيكة الشجر الملتف، فأما احتجاج بعض من احتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد «ليكة» فلا حجة له؛ والقول فيه: إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فألقيت حركتها على اللام فسقطت واستغنت عن ألف الوصل؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض؛ كما تقول بالأحمر تحقق الهمزة ثم تخففها فتقول بِلَحْمر؛ فإن شئت كتبته في الخط على ما كتبته أوّلاً، وإن شئت كتبته بالحذف؛ ولم يجز إلا الخفض. قال سيبويه: واعلم أن ما لا

(١) قراءة سبعية متواترة : تقريب النشر (ص١٥٢).

(٢) ضعيف : وفيه جرير بن حازم ، عن قتادة وحديث جرير عنه فيه ضعف كما قال الذهبي ـ رحمه الله ، ورواه الطبري (١٩/ ١٠٧) في تفسيره.

(٣) صحيح الإسناد وفى متنه غرابة ونكارة كالسابق : ابن أبي حاتم (١١/ ٨) في تفسيره.

(٤) فى المطبوعة (روى جبير) وهو خطأ، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٨)، وإعراب القرآن (٣/ ١٩٠) للنحاس.

(٥) ضعيف جدًا بل واه : ابن أبي حاتم (١١/ ٨) في تفسيره .

ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف انصرف؛ ولا نعلم أحداً خالف سيبويه في هذا. وقال الخليل: «الأيكة» غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب؛ لأنه لم يكن أخاً لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾؛ لأنه كان منهم. وقد مضى في «الأعراف» القول في نسبه. قال ابن زيد: أرسل الله شعيباً رسولاً إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة؛ وقاله قتادة. وقد ذكرناه. ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ تخافون الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ الآية. وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحداً على صيغة واحدة؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة. ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين للكيل والوزن. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي اعطوا الحق. وقد مضى في «سبحان» وغيرها ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدّم في «هود» وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ قال مجاهد: الجبلة هي الخليقة[1]. وجُبِل فلان على كذا أي خُلق؛ فالخُلُق جِبِلَّة وجُبُلَّة وجِبْلَة وجُبْلَة وجَبْلَة ذكره النحاس في «معاني القرآن». ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ عطف على الكاف والميم. قال الهروي: الجِبِلّة والجُبْلّة والجِبِلُّ والجُبُلُّ والجَبْلُ لغات؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس؛ ومنه قوله تعالى: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس:٦٢]. قال النحاس في كتاب «إعراب القرآن» له: ويقال جُبُلَّةٌ والجمع فيهما جَبَّالٌ، وتحذف الضمة والكسرة من الباء، وكذلك التشديد من اللام؛ فيقال: جُبْلَةٌ وجُبَلٌ، ويقال: جِبْلَةٌ وجِبَالٌ؛ وتحذف الهاء من هذا كله. وقرأ الحسن باختلاف عنه: «وَالْجُبُلَّةَ الأَوَّلِينَ» بضم الجيم والباء؛ وروي عن شيبة والأعرج. الباقون بالكسر. قال [امرؤ القيس]:

والموتُ أعظمُ حادث فيما يَمرُّ على الجِبِلَّه

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدّم. ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي ما نظنك إلا من الكاذبين في أنك رسول الله تعالى. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي جانباً من السماء وقطعة منه، فننظر إليه؛ كما قال: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤]. وقيل: أرادوا أنزل علينا العذاب. وهو مبالغة في التكذيب. قال أبو عبيدة: الكِسْف جمع كِسْفة مثل سِدْر وسِدْرة. وقرأ السلمي وحفص: «كِسَفًا»[2] جمع كِسْفَة أيضاً وهي القطعة والجانب تقديره كِسْرة وكِسَر. قال الجوهري: الكِسْفة القطعة من الشيء؛ يقال أعطني كسفة من ثوبك والجمع كِسَفٌ وكِسْفٌ. ويقال: الكِسْف والكِسْفَة واحد. وقال الأخفش: من قرأ «كِسْفاً» جعله واحداً ومن قرأ ﴿كِسَفًا﴾ جعله جمعاً. وقد مضى هذا في سورة «سبحان». وقال الهروي: ومن قرأ: «كِسْفاً» على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقاً واحداً، وهو من كسفت الشيء كسفاً إذا غطيته. ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد؛ أي إنما عليّ التبليغ وليس العذاب الذي سألتم إليّ وهو يجازيكم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ قال ابن عباس:

(١) صحيح إليه: الطبري (١٩/ ١٠٦) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ١٢) في تفسيره.
(٢) قراءة سبعية متواترة: تقريب النشر (ص١٣٥).

أصابهم حر شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلّوا بها، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا(١). وقيل: أقامها الله فوق رؤوسهم، وألهبها حراً حتى ماتوا من الرَّمْد. وكان من أعظم يوم في الدنيا عذاباً. وقيل: بعث الله عليهم سَموماً فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرمها الله عليهم ناراً فاحترقوا. وعن ابن عباس أيضاً وغيره: إن الله تعالى فتح عليهم باباً من أبواب جهنم، وأرسل عليهم هَدَّة (٢) وحرا شديداً فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماء فانضجهم الحر، فخرجوا هرباً إلى البرية، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلتهم فوجدوا لها برداً وروحاً وريحاً طيبة، فنادى بعضهم بعضاً، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله تعالى عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلي، فصاروا رماداً (٣)؛ فذلك قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود:٦٧، ٦٨] وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقيل: إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام، وسلّط عليهم الحرّ حتى أخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظلّ ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب، ليتبردوا فيها فيجدوها أشدّ حرّاً من الظاهر. فهربوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة وهي الظلّة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا. وقال يزيد الجُوَيْريّ: سلّط الله عليهم الحرّ سبعة أيام ولياليهن ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون وشجر وماء بارد، فاجتمعوا كلهم تحته، فوقع عليهم الجبل وهو الظلة. وقال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أُمتين: أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظُّلَّةَ، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين(٤). ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قيل: آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر(٥).

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عاد إلى ما تقدّم بيانه في أوّل السورة من إعراض المشركين عن القرآن. ﴿نَزَلَ﴾ مخفّفاً قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو. الباقون: ﴿نَزَّلَ﴾(٦) مشدّداً ﴿بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ نصباً وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ﴾ وهو مصدر نزل. والحجة لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدّر؛ لأن المعنى وإن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة:٩٧] أي يتلوه عليك فيعيه قلبك.

(١) لم أجده بهذا اللفظ وبعضه من طريق إسحاق بن نسر وهو كذّاب، ووجدته (٥/ ١٧٤) في الدر المنثور للسيوطي ـ رحمه الله تعالى.

(٢) الطبري (١٩/ ١٠٨) في تفسيره، وفيه: (ومدة) بدلا من (هدة).

(٣) حسن بمجموع طرقه وشواهده: الطبري (١٩/ ١٠٧، ١٠٨) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ١٤) في تفسيره.

(٤) سبق تضعيف هذا الأثر: وانظر: تفسير الطبري (١٩/ ١٠٧) من طريق جرير بن حازم، عن قتادة به.

(٥) ولا يصح العدد؛ لعدم وجود الإسناد إليه.

(٦) قراءة سبعية متواترة: تقريب النشر (ص١٥٢).

وقيل: ليثبت قلبك. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول. ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإن ذكر نزوله لفي كتب الأوّلين يعني الأنبياء. وقيل: أي إن ذكر محمد عليه السلام في كتب الأوّلين. كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والزُّبُر الكتب الواحد زَبُور كرسول ورسل؛ وقد تقدّم.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣)﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مجاهد: يعني عبد الله بن سَلاَم وسلمان وغيرهما ممن أسلم[1]. وقال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد عليه السلام، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته[2]. فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول. وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنهم مظنون بهم علمٌ. وقرأ ابن عامر «أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ»[3]. الباقون ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾ بالنصب على الخبر واسم يكن ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ والتقدير أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة. وعلى القراءة الأولى اسم كان ﴿آيَةً﴾ والخبر ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وقرأ عاصم الجحدري «أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ». ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ أي على رجل ليس بعربيّ اللسان ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم﴾ بغير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا لا نفقه. نظيره ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ [فصلت: ٤٤] الآية. وقيل: معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة وكبرا. يقال: رجل أعجم وأعجميّ إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً، ورجل عجميّ وإن كان فصيحاً ينسب إلى أصله؛ إلا أن الفرّاء أجاز أن يقال رجل عجميّ بمعنى أعجميّ. وقرأ الحسن «عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِيِّينَ» مشدّدة بياءين جعله نسبة. ومن قرأ ﴿الأَعْجَمِينَ﴾ فقيل: إنه جمع أعجم. وفيه بعد؛ لأن ما كان من الصفات الذي مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون، ولا بالألف والتاء؛ لا يقال: أحمرون ولا حمراوات. وقيل: إن أصله الأعجمين كقراءة الجحدري ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون دليلاً عليها. قاله أبو الفتح عثمان بن جنّي. وهو مذهب سيبويه.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ يعني القرآن أي الكفر به ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾

---

(١) صحيح إليه : الطبري (١٩/ ١١١) فى تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٢٤) في تفسيره .

(٢) الدر المنثور (٥/ ١٧٧) للسيوطي، وهو من رواية المصنف بلا سند (١٢/ ٨٠) في المحرر الوجيز لابن عطية .

(٣) قراءة سبعية متواترة : تقريب النشر (ص١٥٢).

وقـيل: سلكنا التكذيب في قلوبهم؛ فـذلك الذي منعـهم من الإيمان؛ قاله يحـيى بن سلاّم. وقـال عكرمة: القسوة. والمعنى متقارب وقد مضى في «الحجر». وأجاز الفرّاء الجزم في ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن فيه مـعنى الشرط والمجازاة. وزعم أن من شأن العرب إذا وضـعت لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جزمت ما بعدها وربما رفعت؛ فتقول: ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم؛ لأن معناه إن لم أربطه ينفلت، والرفع بمعنى كيلا ينفلت. وأنشد لبعض بني عُقيل:

وحتى رأينا أحسَنَ الفعلِ بيننا ... مُسَاكَنَةً لا يقرِفُ الشرَّ قارِفُ

بالرفع لما حذف كي. ومن الجزم قول الآخر:

لَطَالَمَا حَلاتُمَاها لا تَرِدْ ... فخلِّياها والسِّجالَ تَبْتَرِدْ

قال النحـاس: وهذا كله في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خطأ عند البـصريين، ولا يجوز الجـزم بلا جازم، ولا يكون شيء يعمل عـملاً فإذا حـذف عمل عملاً أقـوى من عمله وهو موجـود؛ فهذا احتـجاج بيِّن. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي العذاب. وقرأ الحسن «فَتَأْتِيـهُمْ» بالتاء؛ والمعنى: فتأتيهم الساعة بغتة فأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها، ولكثرة ما في القرآن من ذكرها. وقال رجل للحسن وقد قرأ «فَتَأْتِيَهُم»: يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغـتة. فانتهره وقال: إنما هي الساعة تأتيهم بغتة أي فجأة. ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها. ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي مؤخَّرون ومُمهلون. يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون إليها. قـال القشيري: وقوله: ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ ليس عطفاً على قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا﴾ بل هو جواب قوله: ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ فلما كان جواباً للنفي انتصب؛ وكذلك قوله: ﴿فَيَقُولُوا﴾.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ ۛ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال مقاتل: قال المشركون للنبيّ ﷺ يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[1]. ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ يعني في الدنيا والمراد أهل مكة في قول الضحاك وغيره. ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب والـهلاك ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ ﴿مَا﴾ الأولى استفهام مـعناه التقرير، وهو في موضع نصب بـ﴿أَغْنَى﴾ و﴿مَا﴾ الثانية في موضع رفع، ويجوز أن تكون الثانيـة نفياً لا موضع لـها. وقيل: ﴿مَا﴾ الأولى حرف نفي، و﴿مَا﴾ الثانيـة في موضع رفع بـ﴿أَغْنَى﴾ والـهاء العائدة مـحذوفة. والتقدير: مـا أغنى عنهم الزمان الذي كانوا يمتـعونه. وعن الزهري: إن عـمر بن عبـد العزيز كـان إذا أصبح أمسك بلـحيتـه ثم قرأ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ ثم يبكي ويقول:

---

(١) مـعضل: ومـقاتل ضـعيف .ابن أبي حـاتم (١/ ٢٩) في تفـسيـره مرسـلاً ، وانظر: لباب النقـول (ص٣٠٦) للسيوطي.

نهارُك يا مغـــرورُ سهوٌ وغفـلةٌ ... وليلُك نـومٌ والرَّدَى لـــك لازمُ
فلا أنتَ في الأيقاظ يقظانُ حـازمٌ ... ولا أنـتَ في النُّوَّام نـاجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بمـا يَفْنَى وتفـرحُ بالمـــنى ... كما سُرَّ باللذات في النوم حالمُ
وتَسعى إلى ما سوف تكـــره غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تَعيشُ البهائمُ

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ ﴿مِن﴾ صلة؛ المعنى: وَمَا أَهْلَكْنَا قرية. ﴿إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي رسل. ﴿ذِكْرَى﴾ قال الكسائي: ﴿ذِكْرَى﴾ في موضع نصب على الحال. النحاس؛ وهذا لا يحصل، والقول فيه قول الفراء وأبي إسحاق أنها في موضع نصب على المصدر؛ قال الفراء: أي يذكّرون ذكْرَى؛ وهذا قول صحيح؛ لأن معنى ﴿إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾ إلا لها مذكّرون. و﴿ذِكْرَى﴾ لا يتبين فيه الإعراب؛ لأن فيها ألفاً مقصورة. ويجوز «ذِكْرًى» بالتنوين، ويجوز أن يكون ﴿ذِكْرَى﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي إنذارنا ذكرى. وقال الفراء: أي ذلك ذكرى، وتلك ذكرى. وقال ابن الأنباري قال بعض المفسرين: ليس في «الشعراء» وقف تام إلا قوله: ﴿إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾ وهذا عندنا وقف حسن؛ ثم يبتدئ ﴿ذِكْرَى﴾ على معنى هي ذكرى أي يذكرهم ذكرى، والوقف على ﴿ذِكْرَى﴾ أجود. ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ يعني القرآن بل ينزل به الروح الأمين. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي برمي الشهب كما مضى في سورة «الحِجر» بيانه. وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْقَع: «وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُون» قال المهدوي: وهو غير جائز في العربية ومخالف للخط. وقال النحاس: وهذا غلط عند جميع النحويين؛ وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا غلط عند العلماء، إنما يكون بدخول شبهة؛ لما رأى الحسن في آخره ياء ونوناً وهو في موضع رفع اشتبه عليه بالجمع المسلّم فغلط، وفي الحديث: «احذروا زلّة العالم»(١) وقد قرأ هو مع الناس ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة:١٤] ولو كان هذا بالواو في موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة. وقال الثعلبي قال الفراء: غلط الشيخ يعني الحسن فقيل ذلك للنضر بن شُمَيل فقال: إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما، جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه. مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ بذلك إلا وقد سمعا في ذلك شيئاً؛ وقال المؤرِّج: إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه. وقال يونس بن حبيب: سمعت أعرابياً يقول دخلنا بساتين من ورائها بساتون؛ فقلت: ما أشبه هذا بقراءة الحسن.

---

(١) ضعيف جدًا: ضعفه الألباني (١٩٤) في ضعيف الجامع.

obeikandl.com

قوله تعالى: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ قيل: المعنى قل لمن كفر هذا. وقيل: هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا؛ لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره. ودلّ على هذا قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ أي لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ خصّ عشيرته الأقربين بالإنذار لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشِّرك. وعشيرته الأقربون قريش. وقيل: بنو عبد مناف. ووقع في «صحيح مسلم»: «وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلَصين»[1]. وظاهر هذا أنه كان قرآناً يتلى وأنه نسخ؛ إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر. ويلزم على ثبوته إشكال؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألاّ ينذر إلاّ من آمن من عشيرته؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حبّ النبي ﷺ لا المشركون؛ لأنهم ليسوا على شيء من ذلك، والنبي ﷺ دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم ﷺ؛ فلم يثبت ذلك نقلاً ولا معنى. وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال: «يا بني كعب بن لؤيّ أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبُلُّها ببلالها»[2].

الثانية: في هذا الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته؛ لقوله: «إن لكم رحماً سأبُلُّها ببلالها» وقوله عز وجل: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨] الآية، على ما يأتي بيانه هناك.

قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم في سورة «الحجر» و«سبحان» يقال: خفض جناحه إذا لان. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي خالفوا أمرك. ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي بريء من

---

(١) متفق عليه: البخاري (٤٩٧١) في التفسير، ومسلم (٢٠٨) في الإيمان.

(٢) متفق عليه: البخاري (٢٧٥٣) في الوصايا، ومسلم (٢٠٦) في الإيمان.

معصـيتكم إياي؛ لأن عصـيانهم إياه عصيـان لله عز وجل، لأنه عليه السلام لا يأمـر إلا بما يرضاه، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذي لا يغالب، الرحيم الذي لا يخذل أولياءه. وقرأ العامة: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بالواو وكذلك هو في مصاحفهم.

وقرأ نافع وابن عامر «فَـتَوكَّلْ» بالفاء[١]، وكذلك هو في مصـاحف المدينة والشام. ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي حين تقوم إلى الصلاة في قـول أكثر المفسرين: ابن عبـاس وغيره[٢]. وقال مجاهد: يعني حين تقوم حيـثما كنت[٣]. ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال مجـاهد وقتادة: في المصلِّين[٤]. وقال ابن عبـاس: أي في أصلاب الآباء، آدم ونوح وإبراهيم حـتى أخرجه نبـيًا[٥]. وقال عكرمة: يراك قائماً وراكـعاً وساجداً[٦]؛ وقاله ابن عباس أيضـاً. وقيل: المعنى: إنك ترى بقلبك في صلاتك مَن خلفك كـما ترى بعينـك مَن قدامك[٧]. وروي عن مجـاهد؛ ذكره الماورديّ والثـعلبيّ. وكان عـليه السلام يرى مَن خلفـه كما يرى مَن بين يديه، وذلك ثابت في الصـحيح[٨]، وفي تأويل الآية بعـيد ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تقدم.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إنما قال: ﴿تَنَزَّلُ﴾ لأنها أكثر مـا تكون في الهواء، وأنها تمر في الريح. ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ تقدم في «الحـجر». فـ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ صفة الشياطين ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ يرجع إلى الكهنة. وقيل: إلى الشياطين.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.

---

(١) قراءة سبعية متواترة: تقريب النشر (ص١٥٢).

(٢) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (١٩/ ١٢١) في تفسيره من طريق العوفيين، ورواه به عن عطاء الخراساني وفيه انقطاع، وحسن من طريق عكرمة كما في تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٣٩).

(٣) ضعيف: النكت والعيون (٣/ ١٨٥) للماوردي، وابن أبي حاتم (١١/ ٤٠) منقطعًا من طريق ابن جريج عنه.

(٤) صحيح إليه: الطبري (١٩/ ١٢٢) في تفسيره.

(٥) فيه عطاء الخراساني، عن ابن عباس كما في تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٤٠).

(٦) حسن: الطبري (١٩/ ١٢١) في تفسيره.

(٧) حسن إلى مجاهد: الطبري (١٩/ ١٢٢) في تفسيره، من طريق ابن أبي نجيح.

(٨) صحيح: وقد سبق.

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء؛ قال ابن عباس: هم الكفار ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ ضلاّل الجن والإنس[١]. وقيل: ﴿الْغَاوُونَ﴾ الزائلون عن الحق، ودلّ بهذا أن الشعراء أيضاً غاوون؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك. وقد قدمنا في سورة «النور» أن من الشعر ما يجوز إنشاده، ويكره، ويحرم. روى مسلم من حديث عمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصَّلْت شيء» قلت: نعم. قال: «هيه»[٢] فأنشدته بيتاً. فقال: «هيه» ثم أنشدته بيتاً. فقال: «هيه» حتى أنشدته مائة بيت[٣]. هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته. وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم: عن عمرو بن الشَّريد عن الشَّريد أبيه؛ وهو وَهَم؛ لأن الشريد هو الذي أردفه رسول الله ﷺ. واسم أبي الشَّريد سُوَيْد. وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحِكَم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً، وإنما استكثر النبي ﷺ من شعر أمية؛ لأنه كان حكيماً؛ ألا ترى قوله عليه السلام: «وكاد أمية بن أبي الصَّلْت أن يسلم»[٤] فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه، كقول القائل:

الحمد لله العليِّ المنان صار الثريد في رؤوس العيدان

أو ذكر رسول الله ﷺ أو مدحه كقول العباس:

من قبلها طِبْتَ في الظِّلال وفي مُسـ ـتودعٍ حيث يُخصَفُ الورقُ
ثم هبطت البلاد لا بشرٌ أنتَ ولا مُضغةٌ ولا علَقُ
بل نطفة تركب السَّفينَ وقد ألـ ـجَمَ نَسْراً وأهلَه الغَرَقُ
تنقُل من صالبٍ إلى رَحِمٍ إذا مَضَى عالَمٌ بَدَا طَبَقُ

فقال له النبيّ ﷺ: «لا يفضُضِ الله فاكَ»[٥]. أو الذبّ عنه كقول حسان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند اللَّه في ذاك الجزاءُ

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه[٦] وهي في السير أتم. أو الصلاة عليه؛ كما روى زيد بن أسلم؛ خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت، وإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول:

على محمد صلاةُ الأبرار صلى عليه الطيِّبون الأخيارْ
قد كنتَ قوّاماً بُكاً بالأسحارْ يا ليتَ شِعْري والمنايا أطوارْ
هل يَجمعنِّي وحبيبي الدارْ

يعني النبي ﷺ؛ فجلس عمر يبكي. وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضي الله عنهم؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال:

---

(١) منقطع: الطبري (١٩/ ١٢٥) في تفسيره، عن علي بن أبي طلحة به.
(٢) هيه: زدني، أو هات ما عندك (اسم فعل) كما في النهاية (٥/ ٢٩٠).
(٣) صحيح: مسلم (٢٢٥٥) في الشعر.
(٤) متفق عليه: البخاري (٣٨٤١) في المناقب، ومسلم (٢٢٥٦) في الشعر.
(٥) ضعيف: الهيثمي (٨/ ٢١٧، ٢١٨) في المجمع، وقال: «رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم».
(٦) صحيح: مسلم (٢٤٩٠) في فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

إنِّي رضـيتُ علـيّاً لـلهُـدَى عَلَمـاً ... كـمـا رضيتُ عَـتـيـقاً صـاحبَ الغـارِ
وقـد رضـيتُ أبا حـفصٍ وشـيـعَـتُـه ... ومـا رضـيـتُ بقـتل الشـيخ في الدارِ
كلُّ الصـحـابة عندي قُـدوةٌ عَلَمٌ ... فـهل علـيّ بهـذا القـول من عـارِ
إن كنـتَ تعلـم أنّي لا أحـبُّـهُم ... إلا من اجلـك فـاعـتـقني مـن النار

وقال آخر فأحسن:

حُبُّ النبيِّ رسـول الله مُـفْـتَـرضٌ ... وحُبُّ أصـحـابِه نورٌ بـبـرهانِ
من كـان يـعلم أن الله خـالقـه ... لا يَرمـينَّ أبا بـكرٍ ببـهـتـانِ
ولا أبا حـفصٍ الفـاروقَ صـاحبَـه ... ولا الخليـفـة عـثـمـان بن عـفـانِ
أمّـا عليٌّ فـمـشـهـورٌ فـضـائلُه ... والبـيـت لا يَسـتـوِي إلا بـأركـانِ

قال ابن العربي: أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد؛ فبذلك يضرِب الْملك الموكَّل بالرؤيا المثَلَ، وقد أنشد كعب بن زهير النبي ﷺ:

بانت سـعـادُ فـقلبي اليـوم مَـتْبـولُ ... مُـتَـيَّمٌ إثـرَها لم يُفْـدَ مكبُـولُ
ومـا سُـعـادُ غَـداةَ البَيْـن إذ رَحَلُوا ... إلا أغَنُّ غَـضـيـضُ الطَّرْف مكحـولُ
تَجلُو عَـوَارِضَ ذِي ظَـلْمٍ إذا ابتـسـمتْ ... كـأنَّه مُنْهَلٌ بـالرَّاح مَـعْـلولُ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع، والنبي ﷺ يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح[1]. وأنشد أبو بكر رضي الله عنه:

فَـقَـدْنا الـوحيَ إذ ولَّـيتَ عـنّا ... وودَّعَـنَـا مـن الـلـه الـكـلامُ
سـوى مـا قـد تركـتَ لنا رهيـناً ... تَـوارثَـه القَـراطِيسُ الـكـرامُ
فـقـد أورثتـنا مـيـراثَ صـدقٍ ... عليـك به التـحـيـةُ والسـلامُ

فإذا كان رسول الله ﷺ يسمعه وأبو بكر ينشده، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا.

قال أبو عمر: ولا ينكر الحسنَ من الشعر أحدٌ من أهل العلم ولا من أولي النُّهى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحلّ سماعه ولا قوله؛ وروى أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «أصدق كلمة أو أشعر كلمة قالتها العرب قول لَبيد:

ألاَ كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطلُ»

أخرجه مسلم وزاد «وكاد أمية بن أبي الصَّلْت أن يُسلِم»[2] وروي عن ابن سيرين أنه أنشد شعراً فقال له بعض جلسائه: مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر. فقال: ويلك يا لُكَع وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي، فحسنه حسن وقبيحه قبيح قال: وقد كانوا يتذاكرون

---

(١) الراح: الخمر. الصحاح (١/ ٣٩٨).

(٢) صحيح: وقد سبق قريباً.

الشعر[١]. قال: وسمعت ابن عمر ينشد:

يُحبُّ الخمرَ من مالِ النَّدامَى ... ويكرهُ أن يفارقَهُ الفَلُوسُ[٢]

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعراً مجيداً مقدَّماً فيه[٣]. وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب، وكانت له زوجة حسنة تسمى عَثْمة فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها، وله فيها أشعار كثيرة؛ منها قوله:

تَغلغَلَ حُبُّ عَثْمةَ في فؤادي ... فباديه مع الخافي يسيرُ

تَغلغَلَ حيث لم يبلغ شَرابٌ ... ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ

أكاد إذا ذكرتُ العهد منها ... أطير لو أن إنساناً يَطيرُ[٤]

وقال ابن شهاب: قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك فقال: إن المصدور إذا نفث برأ[٥].

الثانية: وأما الشعر المذموم الذي لا يحلّ سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحّهم على حاتم، وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقيّ، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول؛ كما روي عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فبِتْنَ بجانبيَّ مُصَرَّعاتٍ ... وبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الخِتامِ

فقال: قد وجب عليك الحد. فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وروي أن النعمان بن عديّ بن نَضْلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

مَنْ مُبلِغُ الحسناء أنّ حليلَها ... بمَيْسَانَ يُسقَى في زُجاجٍ وحَنْتَمِ

إذا شئتُ غنتني دَهاقينُ قريةٍ ... ورقّاصةٌ تَجذو على كلّ مَنْسِمِ

فإن كنت نَدْماني فبالأكبر اسقِني ... ولا تَسقِني بالأصغر المتثلِّمِ

لعلّ أميرَ المؤمنين يَسوؤه ... تَنادُمنا بالجَوْسَقِ المتهدِّمِ

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقُدوم عليه. وقال: إي والله إني ليسوؤني ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئاً مما قلت؛ وإنما كانت فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فقال له عمر: أما عذرك فقد درأ عنك الحد؛ ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلتَ[٦]. وذكر الزبير بن بكار قال: حدثني مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له هم إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة: إني قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث، فإذا أتاك كتابي هذا فاشدد عليهما واحملهما إليّ. فلما أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر؛ فقال: هيه!

فلم أرَ كالتَّجميرِ منظَرَ ناظر ... ولا كليالي الحج أفلَتْنَ ذا هَوَى

وكم مالئٍ عينيه من شيءِ غيرِه ... إذا راح نحو الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

(١ ـ ٥) التمهيد (٢٢/ ١٩٥) لابن عبد البر ـ رحمه الله.

(٦) هذه رواية الدارقطني (٤/ ١٥٦) في سننه.

أما والله لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شيء غيرك؛ فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون ثم أمر بنفيه. فقال: يا أمير المؤمنين أو خير من ذلك؟ فقال: ما هو؟ قال: أعاهد الله إني لا أعود إلى مثل هذا الشعر، ولا أذكر النساء في شعر أبداً. وأجدّد توبة؛ فقال: أو تفعل؟ قال: نعم؛ فعاهد الله على توبته وخلاه؛ ثم دعا بالأحوص، فقال: هيه!

الله بيني وبينَ قَيِّمِها ... يَفِر منِّي بها وأَتَّبِعُ

بل الله بين قيمها وبينك ثم أمر بنفيه؛ فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى، وقال: والله لا أردّه ما كان لي سلطان، فإنه فاسق مجاهر.

فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه، فلا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجد ولا غيره، كمنثور الكلام القبيح ونحوه. وروى إسماعيل بن عَيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حَسن الشعر كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام»(١) رواه إسماعيل عن عبد الله الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ: «الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام»(٢).

الثالثة: روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لأنْ يمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً حتى يَرِيَه خيرٌ من أن يمتلئ شعراً»(٣) وفي الصحيح أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذا عرض شاعر يُنشد فقال رسول الله ﷺ: «خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلئ جوفُ رجلٍ قيحاً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً»(٤) قال علماؤنا: وإنما فعل النبي ﷺ هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله؛ فلعلّ هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقاً للتكسب، فيفرط في المدح إذا أعطي، وفي الهجو والذم إذا مُنع، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم. ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام. وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه، ولا يحل الإصغاء إليه، بل يجب الإنكار عليه؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعاً تعيّن عليه أن يداريه بما استطاع، ويدافعه بما أمكن، ولا يحلّ له أن يعطى شيئاً ابتداء، لأن ذلك عون على المعصية؛ فإن لم يجد من ذلك بدّاً أعطاه بنية وقاية العِرض؛ فما وَقَى به المرءُ عرضه كُتب له به صدقة.

قلت: قوله: «لأنْ يَمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً حتى يَرِيَه» القيح المِدّة يخالطها دم. يقال منه: قاح الجُرْح يَقيح وتَقيّح وقَيَّح. و«يَرِيه» قال الأصمعي: هو من الوَرْي على مثال الرمي وهو أن يَدْوَى جوفُه، يقال منه: رجل مَوْرِيّ مشدّد غير مهموز. وفي الصحاح: ورى القيح جوفه يرِيه وريا إذا

(١) صحيح: الدارقطني (٤/ ١٥٦)، والبخاري (٨٦٥) في الأدب المفرد، وانظر: صحيح الجامع (٣٧٣٣) للألباني ـ رحمه الله تعالى.

(٢) صحيح: وقد سبق.

(٣) صحيح: مسلم (٢٢٥٩) في الشعر.

(٤) انظر السابق.

أكله. وأنشد اليزيدي:

قالت لـه وَرْياً إذا تَنحنحَا

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويلـه: إنه الذي قد غلب علـيه الشعر، وامتلأ صدره منه دون علم سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد لـه، كالمكثر من اللغط والـهذر والغـيبة وقبـيح القول. ومن كان الغـالب عليه الشعـر لزمته هذه الأوصاف المذمـومة الدنية، لحكم العادة الأدبيـة. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحـيحه لما بوّب على هذا الحديث «باب مـا يكره أن يكون الغالب على الإنسـان الشعر». وقد قـيل في تأويلـه: إن المراد بذلك الشعـر الذي هُجيَ به النبيّ ﷺ أو غيره. وهذا ليس بـشيء، لأن القليل من هجو النبيّ ﷺ وكثـيره سواء في أنه كفر ومذموم، وكذلك هجو غيـر النبيّ ﷺ من المسلمين محرّم قليلـه وكثيره، وحينئذٍ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى.

الرابعة: قال الشافعي: الشعر نوع من الكلام حسنه كحـسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته، وقد كان عند العرب عظيم الموقع. قال الأوَل منهم:

وجُرح اللسانِ كجُرْحِ اليدِ

وقـال النبيّ ﷺ في الشـعر الذي يرد بـه حسـان على المشـركين: «إنه لأسرع فـيـهم من رشق النّبل»(١) أخرجه مسلم. وروى التـرمذي وصححه عن ابن عبـاس أن النبيّ ﷺ دخل مكة في عُمرة القضاء وعبد اللـه بن رَوَاحة يمشي بين يديه ويقول:

خلُّوا بني الكفَّار عن سبيلـه ... اليومَ نَضربْكُمْ على تنزيلـه
ضرباً يزيلُ الـهامَ عن مَقيلِه ... ويُذهِلُ الخليلَ عـن خليلـه

فقال عمر: يا ابن رَوَاحة في حرم اللـه وبين يدي رسول اللـه ﷺ فقال رسول اللـه ﷺ: «خل عنه يا عمر فلـهو أسرعُ فيهم من نَضح النَّبل»(٢).

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ لم يختلف القراء في رفع ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ فيما علمت. ويجوز النصب على إضمـار فعل يفسره ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ وبه قرأ عيسى ابن عمـر؛ قال أبو عبيد: كان الغـالب عليه حب النصب؛ قرأ: «وَالسَّارِقَ وَالسَّـارِقَةَ» [المائدة: ٣٨] و﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] و«سُورَةً أَنزَلْنَاهَا» [النور: ١]. وقرأ نافع وشـيبة والحسن والسّلمي: «يَتْـبَعُهُمْ» مخـففاً (٣). الباقون ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾. وقال الضحاك: تهـاجى رجلان أحدهما أنصاريّ والآخر مهاجـريّ على عهد رسول اللـه ﷺ مع كل واحد غواةُ قومه وهم السفهاء فنزلت(٤)؛ وقالـه ابن عباس(٥). وعنه هم الرواة للشعر.

---

(١) صحيح: مسلم (٢٤٩٠) في فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم.
(٢) صحيح: الترمذي (٢٨٤٧) في الأدب، والنسائي (٣٨٥٦) في الكبرى، وصححه الألباني ـ رحمه الله.
(٣) قراءة سبعية متواترة: تقريب النشر (ص١٥٢).
(٤) مرسل وفيه ضعف: الطبري (١٩/ ١٢٥) في تفسيره.
(٥) ضعيف: الطبري (١٩/ ١٢٥) في تفسيره من طريق العوفيين، وعنه السيوطي (ص٣٠٧) في لباب النقول.

وروى عنه عليّ بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضُلاَّل الجن والإنس[١]؛ وقد ذكرناه. وروى غُضَيْف عن النبيّ ﷺ: «من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه»[٢] وعن ابن عباس أن النبي ﷺ لما افتتح مكة رنّ إبليس رنه وجمع إليه ذريته؛ فقال ايئسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ولكن أفشوا فيهما يعني مكة والمدينة الشِّعْر[٣].

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول: في كل لغو يخوضون، ولا يتبعون سنَنَ الحق؛ لأن من اتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبت، ولم يكن هائماً يذهب على وجهه لا يبالي ما قال. نزلت في عبد الله بن الزِّبَعْرِيّ ومُسافِع بن عبد مناف وأميّة بن أبي الصلت. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه. وقيل: إنها نزلت في أبي عزة الجُمَحيّ حيث قال:

ألاَ أبلغا عنّي النبيّ محمداً ... بأنَّكَ حَقٌّ والمليكُ حميدُ
ولكنْ إذا ذُكِّرتُ بَدْراً وأهلَهُ ... تَأَوَّهَ منّي أعظمٌ وجلودُ .

ثم استثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، ومن كان على طريقهم من القول الحق؛ فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ في كلامهم ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق، وبما حدّه الله عز وجل، فإن تجاوز ذلك فقد انتصر بالباطل. وقال أبو الحسن البرَّاد. لما نزلت: ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ جاء حسان وكعب ابن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا نبي الله أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلم أنا شعراء؟ فقال: «اقرؤوا ما بعدها ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية أنتم ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أنتم» أي بالرد على المشركين. قال النبي ﷺ: «انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً، ولا تذكروا الآباء والأمهات» فقال حسان لأبي سفيان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ
وإنّ أبي ووالدتي وعِرْضي ... لعِرضِ محمد منكم وِقاءُ
أتشتمه ولستَ له بكفءٍ ... فشركما لخيركما الفداءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيهِ ... وبحري لا تُكدِّره الدِّلاءُ

وقال كعب: يا رسول الله إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه؟ فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنّ ما ترمونهم به نَضْح النَّبل». وقال كعب:

جاءت سَخِينةُ كي تُغالبَ ربَّهَا ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ

فقال النبيّ ﷺ: «لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا»[٤]. وروى الضحاك عن ابن عباس

(١) ضعيف: وقد سبق .
(٢) موضوع : الهيثمي (٨/ ١٢٣) في المجمع، وعزاه للطبراني ، وقال : « فيه إسحاق بن فروة وهو: متروك» .
(٣) رجاله موثقون : كذا قال الهيثمي (٣/ ١٣) في المجمع وعزاه للطبراني في الكبير .
(٤) ذكره الهيثمي (٨/ ١٢٣) في المجمع وعزاه لأحمد وأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه .

أنه قال في قولـه تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾منسوخ بقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال المهدوي: وفي الصحيح عن ابن عباس أنه استثناء. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ في هذا تهديد لمن انتـصر بظلم .قال شريح : سـيعلم الظالمون كيف يخلصـون من بين يدي اللـه عز وجل؛ فالظالم ينتظر العـقاب، والمظلوم ينتظر النصرة. وقـرأ ابن عباس: «أي مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ» بالـفاء والتاء ومعنـاهما واحد . ذكـره الثعلبي، ومـعنى ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أي مصـير يصيـرون، وأي مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى النار، وهو أقبح مصيـر، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع. والفرق بين المنقلب والمرجع: أن المنقلب الانتـقال إلى ضدّ ما هو فيـه، والمرجع العود من حال هو فـيها إلى حال كـان عليها فصـار كل مرجع منقلباً، ولـيس كل منقلب مرجعـاً؛ واللـه أعلم؛ ذكره الماوردي. و﴿أَيَّ﴾ منصوب بـ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ لأن «أياً وسائر» أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلـهـا فيما ذكر النحويون؛ قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك: أن الاستفهام معنى وما قبلـه معنى آخر، فلو عمل فيه ما قبلـه لدخل بعض المعاني في بعض.

obeikandl.com